الحنين إلى المستقبل

رواية ٢٠١٦

الإهداء

إلى أبناء المستقبل الذي أحن إليه

هذه الرواية

تنقل واقع بعض المغتربين العرب في الولايات المتحدة، ليست سيرة ذاتية لشخص محدد، والأسماء الواردة بها، من خيال المؤلف، فإن تطابقت مع أسماء من الواقع مروا بنفس التجربة، فهي مجرد صدفة.

(١)

تتمايل أوراق الأشجار على جانبي الطريق بألوانها الزاهية الجميلة الخضراء والحمراء، والصفرا، كأنها شعر جميلات يحركها نسيم الصباح في الأفق الطلق الذي راق مثله يوما لابن زيدون حين وصف الزهراء قبل مئات السنين بقوله:
إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ومرآى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنه رق لي فاعتل إشفاقا

إنه الصيف هنا حيث وجهتَ عينيك بدت لك الطبيعة في أبهى صورها، كثرة المياه حولتها إلى حديقةٍ تتمنى لو كانت حديقةَ بيتك أينما حللت.
حمدان يقود السيارة، ونعيم يجلس بجانبه يشاركه الحديث، وعيونه لا تفارق الأشجار التي تبتسم له كأنها تودعه. كان باله مشغولا، متوتر الأعصاب، يسرح بعيدا جدا كأنه يغفو لبعض الوقت حتى يهاجمه حمدان بجملة، أو سؤال ينقذه من غفوته.

أخيرا تركه حمدان يسبح في بحر أحلامه، يغفو لبعض الوقت، قبل أن يقتحم عالمه الجديد، لعله في نومه يستريح قليلا، ويريح أعصابه المتوترة منذ أن غادرا (سانت بول) متوجهين إلى (دولوث) في الشمال، فما زالت الطريق في بدايتها، وأمام حمدان ساعتان إضافيتان حتى يصل تلك المدينة التي تشاهد في سمائها أجمل غروب. كأن الشمس هناك تكشف عن مفاتنها مع قرب رحيلها كي نشتاق لعودتها في اليوم التالي.

أغمض نعيم عينيه رحل بعيدا، بعيدا.

الجو صيفا يشبه هذا الشهر منذ سنوات طويلة شاحنة كبيرة محملة بالأسرى الفلسطينيين المحكومين حديثا، وبعض الجنائيين اليهود تطوي الأرض باتجاه سجن بئر السبع من مدينة الرملة حيث السجن المركزي، ومركز توزيع السجناء، والأسرى على السجون. الطقس حار جدا لا تهوية جيدة بالعربة التي يطلق عليها اليهود اسم البوسطة، إلا بعض الهواء الساخن القادم من الشبابيك العلوية التي لا تستطيع أن ترى منها شيئا لعلوها، روائح السجناء والأسرى تختلط ببعض كل أسير يده مربوطة بالأسير الذي بجانبه، السيارة تترنح ذات الشمال وذات اليمين، تتمنى لو أن لديك نقطة ماء تروي بها ظمأك، التنفس صعب تشعر وكأن الهواء يدخل رئتيك مرغما، السجناء اليهود ينظرون إليك بحقد وكره، يسألونك لماذا أنت هنا؟ مخرب؟ قتلت يهوديا يا ابن ال...

ترد عليهم بغضب تكاد تحدث مشاحنه بينكم لكنهم يختصرون الطريق إذا كان العدد لا يميل لصالحهم.

السيارة مغلقة من كل النواحي يمكنك فقط أن ترى خارج السيارة حينما يرفعك سجين آخر لتصل لمستوى الشباك في أعلى السيارة، لو فعلتَها سينتبه إليك الجنود الحراس وينكلون بك، لكن ما الذي تتشوق لرؤيته؟ الصحراء القاحلة؟
عندما تكون سجينا فإن رؤية الصحراء تصبح أمنية لك، أليست هي صحراء فلسطين؟

الطريق تطول والعطش يزداد كدتَ تموت عطشا قبل أن يوقظك حمدان.

- نعيم اقتربنا من الوصول قم يا رجل دعنا نستمتع بك قبل أن نودعك.

فتحت عينيك فركتها، ما زالت الأشجار حولك بقمة روعتها بحثت بجانبك فرأيت عدة زجاجات من الماء البارد كأنها أحضرت خصيصا لك.
شربت إحداها بسرعة لم تترك بها نقطة واحدة حتى سألك حمدان:
- أعطشان كل هذا العطش؟

ليته يعرف أين كنتَ.

(٢)

ها أنت الآن أمام بوابة سجن (دولوث)، ستدخل إليه برضاك، دون قيد أو جنود يرافقونك، أو حتى حارس يفتح لك بوابته، فلا أبواب لهذا السجن الغريب، لا قضبان حديدية، لا أقفال، كأنك ذاهب لنزهة قصيرة، لكنك رغم ذلك تقف أمامه حائرا، متوتر الأعصاب، في حين كانت أعصابك قوية وأنتَ تدخل أسوار سجن بئر السبع قبل أكثر من ثلاثين عاما في سيارة عسكرية مصفحة، كانت قيود السجن تزيدك فخرا، أما اليوم فأنت تشعر أنك داخل إلى سجن حقيقي، كان حمدان ينظر إليك قبل أن يقترب من مدخل السجن ينتظر منك أن تشير إليه أن يتقدم، لأنك بعد ذلك بدقائق ستودعه وتقضي لياليك وحدك.

الهاتف؟!!! نعم الهاتف كان من أنقذك، ودعت الأحباب وأعدته لحمدان، ذلك الصديق الذي تعرفت عليه في الغربة فكان صديقا لم تلده أمك، امتحنته في المهمات الصعبة فنجح فيها، كن شجاعا لا تخف، فأنت بحاجة للسجن، فهناك ستستعيد رباطة جأشك وتعيد حساباتك، وتقلب صفحات الماضي لعلك تجد فيها ما يبعث على السعادة.

كان بالمدخل إشارة خشبية مثل تلك المستخدمة في الشوارع التي تلتقي مع سكة القطار، إشارة تمنع السيارات من الدخول حتى يؤذن لها. وإلى اليسار توجد أزرار، وسماعة، وميكروفون للحديث مع مكتب السجن. ضغط حمدان الزر فرد عليه أحدهم.
- اسمك؟ رقم سيارتك؟ لماذا أنت هنا؟
- اسمي حمدان القواس، رقم سيارتي (٦٥٧-٤٤٨)، معي نعيم قطينة ليسلم نفسه.
- حسنا تقدم بعد أن ترتفع الإشارة إلى الأمام وعندما تصل إلى المنحنى الثاني انعطف إلى اليسار وتوجه باتجاه العمارة التي يرتفع عليها العلم الأمريكي. إن كان معك هاتف خلوي اغلقه ولا تستخدمه قطعيا حتى تخرج.
- حاضر، شكرا.
رُفعت الإشارة، توجه حمدان بسيارته حسبما قال له الموظف، لم تتوقعا أن يسمحوا له بالدخول لداخل السجن بسيارته دون أن يفتش سيارته أحد، كالداخل إلى منتجع سياحي.

كانت ساحة السجن واسعة جدا، فيها الملاعب وعدد من العمارات، وعندما اقتربتما من العمارة الرئيسية شاهدتما بعض السجناء كل يسير في اتجاه. توقفوا جميعا يريدون رؤية وجه القادم الجديد.

أوقف حمدان سيارته أمام البناية التي يرفرف عليها العلم. كانت المقر الرئيسي لمكاتب السجن. فيها الإدارة، غرفة المراقبة، العيادة الرئيسية، وبعض الزنازين الصغيرة لحشر المشاغبين في السجن بها.

كما يوجد بها قسم بريد السجن، وقسم استقبال السجناء، وتسجيلهم، وإطلاق سراحهم وهو ما يسمونه (آر آند دي) وهما حرفان لكلمتي استقبال وإطلاق سراح بالإنجليزية. نزل معك حمدان، وتوجهتما إلى داخل البناية، استقبلكما أحد السجانين بجفاء:
- ماذا تريد؟
فرددتَ عليه:
- أنا هنا سجين جديد.
وقدمت له الرسالة التي تحملها والتي تشير أنك السجين الجديد الذي ينتظرونه، كما تنتظر الفنادق نزلاءها الجدد بفرح شديد.

أشار لك السجان ويدعى (آندي) حسب اسمه المكتوب على ملابسه الرسمية، أن تجلس على كرسي حدده لك، ثم طلب من حمدان الانصراف.
عانقك حمدان بحرارة، وشد على يدك، وقال لك والدموع تكاد تقفز من عينيه:
- شد حيلك، سنراك قريبا. ثم أدار ظهره وغادر السجن حزينا لأنه ودع صديقه في الغربة الذي عاش معه أكثر من عشرين عاما.

للوداع في السجن طعم آخر، طعم لا يمكن لك أن تنسى مذاقه، إنها صورة ترتسم في مخيلتك لن تمحى من ذاكرتك أبدا.

جلستَ على الكرسي الذي حدده السجان (آندي) وبدأت تراقب حركة السجانين. كلما اقترب منك سجان شعرتَ أنه حان دورك، ينظرون إليك، ويهزون برؤوسهم، ما الذي تنتظره بهذا السجن الغريب؟ كل الوجوه بدت لك غريبة مخيفة، كنت تخشى لعصابات التي سمعت عنها في السجون. بدأت تتمتم في سرك.
- اللهم يسرها ولا تعسرها. اللهم ألهمني الصبر.
كنتَ تعد الدقائق والثواني كأنك على نار، تريد أن تدخل إلى السجن بسرعة، ثم إلى الغرف، لتكتشف ما بداخلها، فيزول الخوف من قلبك من ذلك المجهول.

بعد ساعتين جاءك أحد السجانين وطلب منك اللحاق به، سار أمامك من مردوان إلى آخر حتى وقف أمام باب حديدي مغلق. رن الجرس ففتح سجان آخر شباك الباب، وعندما رأى السجان الأول فتح له الباب. فقال له:
- سجين جديد.

دخلت إلى الغرفة الجديدة كانت عبارة عن مكتب عمل عرفتَ فيما بعد أنه لقسم الاستلام والتحرير (آر آند دي). كان السجان المسؤول يلبس ملابس رسمية مختلفة عن الأول فقد كان لكل مجموعة ملابس مختلفة حسب الوظيفة، والرتبة في السجن.
السجان الجديد يدعى (مايكل)، سألك بعد أن حمل ملفك:
- اسمك؟
- نعيم قطينة.
- تاريخ ميلادك ....
- الخامس من آذار ١٩٥٩.
- مكان الولادة؟
- القدس.
- رقم كرت الضمان الاحتماعي؟
- قدمت له الرقم
طلب منك الوقوف أمام الكاميرا والتقط لك صورة، وبعد التأكد من صلاحيتها، بدأ يأخذ بصمات أصابع يديك كلها.
ثم أمرك أن تخرج كل ما في جيبك، حيث بدأ بتسجيلها على نموذج معد لذلك، بعد ذلك سمح لك بالاحتفاظ ببعض الصور، والقرآن الكريم، ثم قال لك:
- سنعيد كل ما تبقى مع ملابسك إلى أهلك.
الآن اخلع ملابسك.
خلعتها كلها إلا ما تغطي به عورتك، لكنه أمرك أن تخلعها كلها، ماذا؟ أعاد عليك الأمر بأن هذا شرط على كل السجناء، وإلا حُوِّلت للزنزانة، فاستجبت له باستحياء.
فقال لك آمرا:
- ارفع بيضاتك للأعلى. فرفعتها.
ثم أمرك
- در للخلف، وانحنِ للأمام، وافتح مؤخرتك بيديك.
- لماذا؟
لنرى إن كنت تخفي شيئا
- ولكن....
- افعل ما أطلبه منك ولا تغلبني....
ففعلت بعد أن اشتد بك الغضب.
- ارفع قدمك لأرى أسفل القدم.
بعد ذلك قال لك:
- سأعطيك الآن غيارا واحدا مؤقتا مع حذاء من قماش مؤقت ليوم واحد. ستذهب غدا إلى قسم الملابس في بناية المغسلة، سيدلك عليها السجناء لتستلم ملابسك الجديدة. لا تنس

يجب أن تكون هناك ما بين السادسة، والسابعة صباحا وإلا لن يعطوك شيئا وستضطر إلى العودة في اليوم التالي.
هززت رأسك موافقا وبدأت تلبس ما أعطاه لك، كأنك تلبس ملابس الإعدام.

حمل السجان ملابسك بيديه التي وضعها في قفازات من البلاستيك كي لا يلمس شيئا، وضعها كلها في صندوق وأغلقه، ثم طلب منك أن تكتب عنوان بيتك عليه.

- سنرسله إلى عنوانك، وعندما يحين وقت خروجك سنعلمك لتطلب منهم أن يرسلوا لك ملابس تغادر السجن بها. والآن انتظر في الغرفة الصغيرة الموجودة هنا لتلتقي مع مدير ملفك في السجن.

جلست في الغرفة الصغيرة التي تشبه الزنزانة وحيدا لا يوجد فيها سوى مقعد أتعبك الجلوس عليه، وحنفية ماء.

كنت تنظر إلى الباب عله يفتح، وأنت تسمع صوت أقفال تضرب بالأبواب، السجان هو السجان وإن اختلف المكان.

فجأة فتح الباب، طلت منه امرأة بدينة، بدت في الثلاثينيات من عمرها. عرفت على نفسها بأنها (ماري)، طلبت منك أن تتبعها لغرفة أخرى فيها طاولة وكرسي لها، سألتك عن اسمك، وتاريخ ميلادك ثم سألتك:

- لماذا أنت هنا؟
ماذا تشرح لها؟ ألا تعرف كل شيء من الملف الذي بحوزتها؟
يريدون أن يسمعوا منك، يوهمونك أنهم هنا لمساعدتك.
- قضية كاذبة.
- كاذبة؟ قالتها ساخرة. ثم قالت لك:
- كلهم يقولون مثلك، لا يهمني إن كانت كاذبة أم صادقة، المهم أنك هنا بقضية التآمر على مصلحة الضريبة، ومحكوم عامان، وعليك دفع غرامة نصف مليون دولار.
- ليس عندي ما أقوله سوى كل ما اتهمت به باطل.
- على كل حال سيكون لي معك لقاء لاحقا لتحديد كيف ستسدد بقية المبلغ.
- ليس عندي شيء أدفعه.
- سنتكلم فيما بعد. المهم الآن أن تحضر غدا المحاضرات التي سيلقيها بعض المسؤولين على السجناء الجدد لتعرف قوانين السجن وتلتزم بها.

عدتَ إلى تساؤلاتك:

- أه لو أستطيع الاتصال بحنان. نسيت أن أذكرها أن تدفع فاتورة الكهرباء كي لا يقطعوا التيار. لماذا القلق يا نعيم؟ دعها تتدبر أمر البيت دون تدخلك، دعها تتعلم كيف تتابع كل هذه الأمور وحدها. لماذا دائما تحب أن تقوم بكل الأعمال الصغيرة تحت حجة أنها لا تعرف الإنجليزية بطلاقة؟ ستتعلم، ستعرف بغيابك كل شيء. لا خيار لديها سوى مواجهة الواقع بمره.

فتح مايكل عليك الباب وطلب منك الخروج من الغرفة، قدم لك بطاقه حمراء، وعليها صورتك واسمك والرقم الفدرالي. وقال لك:
- احتفظ بها، فعليك تقديمها لدى ذهابك للزيارة أو لعيادة الطبيب. وأحيانا يطلبها السجانون منك للتأكد من اسمك فلا تضيعها، إن فقدتها ستدفع خمسة دولارات بدل إصدار بطاقة جديدة.

كان عليك أن تجتاز فحصا طبيا قبل أن يسمحوا لك بالدخول إلى أحد أقسام السجن، وبعد انتظار دام ساعة، واجتياز الفحص الطبي، كنت تسير خلف سجان طويل اسمه (شيفا) تحمل بطانياتك، ومخدتك، متجهين إلى بناية قسم رقم (٢١١) والتي تتكون مثل بقية العمارات المخصصة للسجناء من طابقين وتمتد بشكل مستطيل، كان نصيبك في الطابق الثاني، كان السجناء ينظرون إليك وأنت تسير بينهم يسألك كل منهم من أين أتيت، وما مدة حكمك.

(٣)

تكسر خوفك الآن، وأنت في سجن (دولوث) خلف الأسوار الشكلية التي ذهبت إليها برجليك وكان بإمكانك أن تهرب لكن إلى أين؟ أين يمكنك أن تهرب من بلد يمكنها وضع اسمك كمطلوب في كل مطارات العالم قاطبة بما فيها البلدان العربية التي تحسب نفسك منتميا إليها، وتتغنى بها؟ أنت في أي دولة عربية أجنبي، أمريكي، سيسعدون بتسليمك لأمريكا لكسب رضاها بك، هل تهرب لفلسطين؟ سيسلمك الاحتلال مسرورا، أما السلطة الفلسطينية فهل تستطيع أن ترفض لأمريكا طلبا؟ وأنت في نظر الجميع مجرم هارب من العدالة. لن يصدقوك، سيقولون أنك سرقت الملايين من الضرائب الأمريكية، سيطمعون بك، ولو أراد أحد منهم مساعدتك لن يفعل ذلك إلا إذا قبض نصيبه. لذلك لم يكن لك خيار آخر، أن تقضي فترة حكمك وتخرج حرا لا أحد له سلطة عليك.

ها أنت تقتنع اليوم أن السجن ليس بأسواره ولكنه بناسه، بمعانياته، بانقطاع التواصل عن الأحبة والأصدقاء. ماذا لو كنت في جزيرة وسط البحر وحدك أكنت ستشعر أنك حر؟

وجوه غريبة بدى بعضها مخيفا لك، أشكالهم توحي أنهم مجرمون، بيض، وسود، وإسبانيول، غرف يفوح منها العفن نصيبك منها غرفة رقم (١٣) في السرير الأوسط السفلي لأنك لا تستطيع الصعود للسرير العلوي. فجأة سألك أحدهم:

- هل أنت مسلم؟

- نعم

- أنت عربي؟

- نعم

- أوكي، السلام عليكم.

- وعليكم السلام. هل تتكلم العربية؟

- لا أعرف ماذا تقول، أنا لا أعرف سوى هذه الجملة، يوجد عرب هنا في السجن، سأعرفك عليهم عندما نذهب إلى العشاء.

بعد قليل موعد العدد قبل العشاء، هذا موعد دائم كل يوم الساعة الرابعة بعد الظهر، بعد ذلك ينادون علينا بالسماعة للعشاء وهناك سأعرفك على أحدهم. موجودون في البنايات الأخرى، لا أحد هنا في قسم (٢١١).

هززت رأسك وشكرته.

لكنه تابع حديثه:

- عندما يعلنون عن العدد عليك العودة إلى الغرفة أينما كنت، وعندما يصل فريق العدد إلى البناية في الساعة الرابعة عليك الوقوف إجباريا وإلا أرسلوك إلى الزنزانة.
- كم مرة يعدوننا؟
- سبع مرات في اليوم.

صرخ السجان عندما دخل العمارة رقم (٢١١) بالسماعة.
- كاونت (عدد)، ذكرك صوتهم بصوت السجان اليهودي عندما كانوا يصرخون مثلهم بالعبرية (سفيراه).
وقف جميع من في الغرفة.
بعد فترة قصيرة، ظهر سجانان كل منهما يحمل ورقة وقلما يعدان السجناء واحدا تلو الآخر. كل سجان كان يعد وحده ويسجل على دفتره، بعد انتهاء الغرف، نزلا إلى الطابق الأول ثم خرجا إلى العمارة التي تليها، وهكذا.

انتهى العدد وأعلن السجان بالسماعات عن بدء العشاء، ودعا بناية (٢١٠) إلى الذهاب إلى قاعة الطعام. كان السجناء في بناية (٢١١) يتجمعون على الدرج وفي المردوان وأمام باب العمارة. لا أحد يستطيع التوجه إلى قاعة الأكل إلا بعد سماع اسم عمارته بسماعات السجن، لكن بعضهم يستغل عدم وجود السجان في الطريق فينسلون بسرعة غير آبهين بقانون، سألتَ أحد السجناء كيف ينادون العمارات:
- كل شهر يقومون بتفتيش العمارات والأقسام والتدقيق بالترتيب، والنظافة، والنظام، القسم الأفضل يوضع في أعلى الجدول، والقسم الثاني بعده، وبذلك يصبح الترتيب لذلك الشهر بالنسبة للبدء بالأكل.
ضحكتَ وسألتَ:
- وأين قسمنا من الجدول؟
- الأخير.
- الأخير، ها ها ها.
- وما الفرق؟
- الفرق أنك أحيانا عندما تكون الأخير قد تجد بعض أنواع الأكل أو السلطات قد انتهت، الطاولات وسخة، قد لا يوجد كاسات أو صحون، والثاني يوجد في السجن ألف سجين وما أن يأتي دورك يكون طابور الانتظار طويلا، ربما لا تشعر به اليوم لكن فصل الشتاء هنا أكثر من ستة أشهر من البرد، والصقيع، وعندما تنتظر في الطابور أكثر من نصف ساعة خارج البناية ستتجمد، وقد تتخلى عن وجبة ذلك اليوم، هل فهمت؟

جاء دور عمارتك هيا، نادي السجان على قسم (٢١١) فتحرك السجناء بسرعة كان بعضهم يركض وآخرون يهرولون، فبقيت مع بعض كبار السن في مؤخرة الطابور.

حملتَ صينيتك وما بها من أكل وذهبت تبحث عن كرسي فارغ تجلس عليه، كانت عيونك تبحث ذات اليمين وذات الشمال عن مكان ترتاح للجلوس فيه، ولا يزعجك الجالسون بجانبك، وبينما أنت مشغول في البحث شعرت بيد توضع على كتفك فاستدرت لترى سجينا يبتسم لك وما أن التقت عيناك بعينيه حتى بادرك بالسؤال:

- أنت السجين العربي الجديد؟

ابتسمت ودق قلبك من الفرح، فقد يخفف عنك ذلك بعض التعب ويزيل عنك الخوف، فالصحبة بالسجون كنز لا يعوض، قلت له على الفور:

- نعم أنا هو.
- أهلا وسهلا.

حمل عنك الصينية وقال لك:

- اتبعني

فتبعته إلى طاولة في الداخل. كان يجلس عليها عربيان، وضع الصينية عليها وبدأ يعرفك بهم:

- جوني لبناني، شريف مصري، وأنا صالح من اليمن.

سلمت عليهم وقلت لهم:

- نعيم من فلسطين.
- تشرفنا.

قال لك شريف:

- كل يا عم نعيم، لا تجعل السجن يقهرك. هذا هو العشاء ولا يوجد أكل بعده،
- لماذا العشاء مبكرا؟
- كل شيء هنا غريب عنك، وأنت كالطفل الذي لا يعرف شيئا، يحاول أن يكتشف الأشياء وحده بالتدريج، فمن الصعب عليك التعود على حياة السجن خلال يوم أو أيام.

بعد العشاء خرجوا من قاعة الأكل باتجاه أحد الأقسام. وهناك أمام الباب الرئيسي للقسم كان بعض الشباب العرب يجلسون على مقعد رباعي يلعبون الورق، ضرب أحدهم يده على الطاولة وقال:

- هذه لي وهذه لي.

ما أن رأوك قادما حتى وقفوا يسلمون عليك، كأنهم يعرفونك منذ سنوات.

في السجن تختفي القطريات، والألوان، وتستبدل بانتماء جديد، الانتماء للسجن.
- حسن من العراق.
- ريمون من فلسطين، بيت ساحور.
- جلال فلسطين، بيتونيا.
جلسوا جميعا على مقعدين متقاربين وكانوا سعداء بحضورك، فمصائب الناس أفراح لدى السجناء.
كان السجناء يسيرون بحرية ويتنقلون بين الأقسام. فسآلتهم:
- هل يستطيع السجين التنقل كما يريد؟
فقال لك جلال:
- ما عدا وقت العدد والعمل يمكنك التنقل حسبما تريد من قسم إلى قسم. إلى المكتبة، إلى غرفة الأكل، إلى غرفة التلفزيون، غرفة الرياضة، الملعب، السينما، لا أحد يسألك عن شيء. المهم أن تعرف المناطق التي يجب عدم الوصول إليها بعد انتهاء العمل.
- وماذا عن التلفون؟
- التلفون أولا يجب أن يرسلوا لك رقما سريا لاستخدام الهاتف. بعد ذلك يحددون لك ثلاثمئة دقيقة بالشهر، بمعدل عشر دقائق يوميا، كل دقيقة في سائر الولايات المتحدة ٢٣ سنتا، أما في نفس المدينة (دولوث) ستة سنتات. ولكن إلى بلادنا تختلف الأسعار من دولار إلى دولارين بالدقيقة.
فأكمل صالح قائلا:
- إذا اتصلت مكالمة حتى لو دقيقة لا تستطيع الاتصال مرة أخرى إلا بعد نصف ساعة.
فقال لك ريمون:
- ما تخاف ففي الأيام القادمة سوف تحكي مكالمات حتى تزهق. المهم غدا اذهب إلى مسؤولة الأقسام السيدة (سميث) المرأة السوداء، اطلب منها أنك تريد إعلام أهلك بوجودك بالسجن، ستمنحك لمرة واحدة مكالمة مجانية من عندها، لا تنس أن وصول رقمك السري للهاتف يستغرق وقتا. وبدونه لا تستطيع الاتصال.
فقال لك صالح:
- وعليك أيضا تقديم ورقة بأرقام الهواتف التي تريد إضافتها إلى حسابك، كل رقم غير مسجل في حسابك لن تستطيع الاتصال به، فالمسؤول يجب أن يوافق على أي اسم تطرحه، ولا تستطيع تسجيل أكثر من ثلاثين رقم هاتف.

كنت بعيونك تتفحص كل من حولك من السجناء الذين زال خوفك منهم، ها هم يمرون عنكم، بعضهم يشير لكم بيده، دققت النظر في كل شيء، راقك منظر السماء، أشعة الشمس التي تهرب خلف الأفق تصنع لوحة رائعة بالسماء كأن رساما مبدعا صممها بعناية، وإتقان، سرحت بهذه اللوحة الجميلة فيما كان جوني يقول لك:

- هذا السجن كان معسكرا للجيش منذ سنوات طويلة ثم حولوه إلى سجن من السجون المخففة (كامب)، السجن يتسع إلى ألف سجين الآن، لكن يمكن أن يتسع إلى أكثر إن أرادوا. فيوجد بناية كاملة غير مستخدمة، وهناك غرف فيها أربع سجناء، وأخرى فيها ستة، وبعضها فيها ثمانية سجناء، مع أنها كلها نفس المساحة.
خمس بنايات رئيسية مسكونة كل بناية مكونة من طابقين.
لاحظ جوني سرحانك للبعيد، فقطع حديثه ثم علق قائلا:
- الوقت مبكر للسرحان، ما زلت في أول يوم في السجن، إن أردت أن تمر مدة السجن بسرعة، فلا تسرح للبعيد، ابق معنا هنا.

وقف جلال وأشار لك بيده أن تلحق به قائلا:
- تعال الآن لنسلمك بعض الحاجيات حتى تشتري بدلا منها لاحقا. ونعرفك على أقسام السجن، وأين يسكن كل منا ان احتجت أحدا منا.

فتح جلال خزانته وقدم لك كيسا بلاستيكيا فيه فرشاة ومعجون أسنان، صابون، بابوج بلاستيك للحمام، شفرة حلاقة، وصابون للحلاقة، وقال لك:
- ستحتاج لهذه الأشياء حتى تشتري مثلها لاحقا.
نحن هنا نتعامل كأسرة واحدة، وان احتجت لشيء آخر فلا تخجل، الظروف رمتنا هنا وعلينا المواجهة.
كنت مستغربا لهذا الكرم الحاتمي، لم تكن تتوقع أن تجد بالسجن إناسا مثل هؤلاء الشباب، كنت تتوقع أن تجد العصابات، والضرب، وها أنت تتفاجأ، هل ممكن هذا؟

كنتم تسيرون من قسم إلى قسم، والسجناء موزعون في ساحاته، كأنهم خارج أسواره، هناك تجد بعضهم يمارس رياضة المشي، وآخرون يلعبون الورق، وفي مكان آخر يلعبون الشطرنج وفي الملعب يلعبون بيسبول، وآخرون يضعون سماعات الراديو الصغيرة في آذانهم يهزون وسطهم طربا، وفي قسم النشاطات كان بعضهم يلعب البلياردو، وآخرون في زاوية بعيدة يلعبون الورق ويقامرون دون معرفة السجان.

تعرفتَ حيث تقيم تعرفت على المغسلة، والحمام، والقوانين المتفق عليها بين السجناء، قال جوني:

- هناك كما ترى حمامان في كل طابق، كل حمام فيه خمس دشات، كل دش له ستارة من البلاستيك.

قبل الدخول إلى جهة الحمامات تنادي بصوت مسموع:

- هل هناك أحد في الطريق؟ فإن كان أحد المستحمين ينشف نفسه عاريا سيقول لك: نعم، انتظر لحظة لذلك عليك الانتطار حتى ينتهي ويخرج، وإن لم يرد عليك أحد، فهذا يعني أنهم جميعا يستحمون، والستائر مغلقة عليهم، كذلك تفعل عندما تنتهي من الحمام، قبل أن تخرج من الحمام وتزيح الستارة لتنشف جسمك تتأكد أن لا أحد في مردوان الحمام.
- هذه عادة حسنة .

فقال صالح:

- هذه العادة متفق عليها بين السجناء. أما الإدارة فلا يهمها ذلك، وتطالب السجناء الدخول والخروج دون استئذان. بحجة أنه لا مانع أن يرى الرجل عورة الرجل الآخر.
- الحمد لله أنهم متفقون علي شيء إيجابي.

وصلتم غرفتك التي تنام بها، عرفوك على نزلائها، وعرفوا الآخرين أنك واحد منهم، كي لا يستفرد بك أحد:

- السجناء عندك دائما متغيرون، فهذا القسم محطة تنقل في العادة. لذلك قد ينقلونك عندنا بعد شهر أو اثنين.
- أرجو أن يكون ذلك.

كان المكسيكي في الغرفة فقال لنعيم:

- أصبح لك اصحاب بسرعة؟

قال له صالح:

- إنه أخونا.

فقال المكسيكي:

- رائع زدتم واحدا. صمت ثم قال لهم: الله أكبر

ضحكوا فقال له جلال:

- إنه جديد أرجو أن تدله على أي شيء لا يعرفه، خصوصا وقت العدد.
- لا تقلقوا سأساعده في أي شيء يحتاجه.
- جراتْسيْسْ أميغوا.

(شكرا صديقنا).

ثم استدار إلى نعيم وقال له:

- أنت الآن متعب بالتأكيد، اذهب إلى الحمام وبعد أن تستحم، يمكنك الاستراحة، سنراك غدا صباحا في قاعة الأكل. لا تنس حتى لو كنت لا تحب الفطور، تعال لنتحدث، فنحن نكون هناك لأننا نذهب إلى العمل الساعة السابعة صباحا، أنا، وشريف نعمل في قسم

المنجرة، وصالح يعمل في قص الحشيش، وجوني، وريمون في قسم الحدادة. وحسن في المطبخ.

استلقيتَ على سريرك بعد حمام ساخن، إنها ليلتك الأولى بالسجن، غرفة بلا باب مثل الوكالة بلا بواب. السجناء داخلون خارجون. لا يوجد خصوصية هنا. لا أحد يستطيع منع أحد من الصياح، أو الصراخ، أو الدخول والخروج. المراحيض خارج الغرفة مع أنها في سجون أخرى في نفس الغرفة. لذلك ارتحت من من روائحها الكريهة.

إنه الليل يستريح الناس من العمل ويحلمون بغد أفضل. لكن السجناء هنا يخصمون يوما من أيام سجنهم ويقتربون يوما نحو الحرية. كل سجين يحمل راديو مع سماعة على اذنيه حتى يسمع الراديو وحده، ممنوع استخدام الراديو بدون سماعات، ولا يبيعونها في المحل إلا هكذا، أي أنك بدون سماعات لا تستطيع سماع الراديو. أجهزة التلفزيون مبرمجة كلها لتستمع إليها عبر موجات الراديو، لذلك بدون الراديو لا تستطيع سماع صوت التلفزيون.

هو يومك الأول إذن وها أنت تسلقي على سريرك متعبا، تشعر بالإرهاق، تحاول وسط هذا الضجيج أن تسبح في بحر ذكرياتك، تشعر بصخرة كبيرة تجثم على صدرك. إنها ليلتك الأولى في السجن. بعيدا عن الأولاد وزوجتك والأهل.
حاولتَ النوم لكن أنى لك ذلك، فالذكريات تهاجمك، صور الأولاد من كل جانب، بسمة زوجتك، ووجهها، دموعها ساعة وداعها، صوت أمك على الهاتف، صوت والدك، صديقك حمدان الذي شد على يديك، شركتك التي أغلقوها، صور شوارع القدس القديمة، باب العمود، كأنك أمام قصاصات جرائد حيثما وجهت عينيك تقرأ خبرا جديدا، وربما تشبه صالة عرض لرسومات جميلة تنظر إليها كلها من بعيد فتشاهدها معلقة على الحيطان لكنك عاجز عن التدقيق بها لأنك بعيد عنها، وكلما اقتربت من إحداها اختفت اللوحات الأخرى.
كيف تستمتع بها وسط هذا الضجيج؟ لا خصوصية لك هنا، لأول مرة تشعر أن استعادة الذكريات خلف القضبان يحمل كل هذه الآلام، كأن أحدا يوخزك بدبوس في كل أنحاء جسمك.
حاولت أن تبعد عنك تلك الصور التي تلاحقك مثل دعايات التلفزيون المتلاحقة، لكنها لم تبتعد، حاولت أن تكشها بيدك كأنك تكش ذبابا يهاجم قطعة حلوى. لكن تكاثر الذباب دفعك للاستسلام، وبقيت كالميت في سريرك حتى غرقت في بحر أحلامك.

(٤)

- الأخ عربي؟
- نعم، أهلا وسهلا، أنا حمدان القواس من القدس.
- كمان من القدس؟ ما هذه المصادفة. أنا نعيم قطينة من القدس أيضا.
- أهلا ببلدياتي.

وهجم عليه يعانقه.

سأله:

- منذ متى أنت هنا؟
- منذ أسبوع فقط.
- أنت طازة إذن. تعال نشرب قهوة على حسابي.
- طمني كيف الدراسة هنا؟
- رائعة جدا، والبلد هادئة أفضل من الولايات الجنوبية، والمدن الكبيرة. لا يوجد عرب سواي أنا وها أنت الثاني. الولاية فيها بعض المواطنين العرب معظمهم فلسطينيون، وثم مصريون، وبعض اللبنانيين. أنا منشغل بدراستي، سأعرفك إن شاء الله على الكلية وكل فروعها وأقسامها.
- أريد أن أسألك عن السكن.
- سكن؟ لتسكن عندي وتتقاسم معا أجرة الغرفة، لا تحتاج إلى شقة كبيرة نحن طلاب.
- كلامك صحيح، متى تحب أن أنتقل عندك؟
- متى تشاء، الليلة إن أحببت.
- الليلة؟
- لم لا؟! نسهر معا، ونلاحق الطالبات معا.
- الطالبات؟
- طبعا، وهل تريدنا أن نلاحق الطلاب ها ها ها.

ضحك نعيم قال له:

- ولكن.....
- لا لكن ولا ساكن. الدراسة لها وقتها، ومطاردة الجنس اللطيف له وقته. أنظر هناك.... هل ترى تلك الفتاة الجالسة مع زميلتها؟
- تقصد التي تلبس البلوزة الحمراء؟
- هي نفسها، أعرفها منذ فترة، وأحيانا تزورني في البيت.
- تزورك في البيت؟

- وأحيانا أزورها أنا.
- في بيت أهلها؟
- لا في بيتها.
- وحدكما؟
- نعيم هل تتظاهر بالغباء؟
- لا أقصد يا حمدان، أنت تعرف أنني وصلت حديثا ولا يوجد لدينا تلك الأشياء.
- لا تهتم اترك كل ذلك لي وسأجعلك غدا ترقص مع إحداهن.
- أنا؟
- نعم أنت، سترقص معها و..... ضحك ثم نظر إليه وسأله.
- هل فعلتها من قبل؟
- قلت لك نحن لا نطارد البنات في القدس وقد كنت سجينا قبل ذلك.
- أسير سياسي؟
- نعم.
- وكم سنة سجنت؟
- سنتان.
- إذن علينا مكافأتك على تعبك.
- يا حمدان أنا جئت لأدرس وأعود للوطن.
- هذا ما تقوله الآن، لكن بعد سنوات، ستقول بعد سنوات أخرى، وهكذا حتى يصبح شعرك أبيض فتقول ماذا سأفعل هناك؟ لقد مات من كنت أعرفهم.
- لا ليس هذا نعيم.
- ربما بعد أن أضع في جيبي مليون دولار فاعود لأبني بيتا، وأشتري سيارة ومحلا تجاريا يدر علي دخلا، وأجلس في البيت مثل شيخ عشيرة.
- وتترك الوطن للمستوطنين؟
- يا نعيم مواجهة المستوطنين تحتاج إلى قوة جيش، إلى دبابات، وطيارات وها أنت ترى الوضع العربي المتدهور بعد اتفاق السادات مع إسرائيل.

تنهد نعيم وقال لحمدان:

- تعال أولا نشتري شيئا نأكله. ماذا تريد أن تأكل؟ أنا عازمك على حسابي.
- على حسابك؟ أنت ما زلت ضيفا، وهل يدفع الضيف؟
- هذا كرم منك لكن.....
- قلت لك بدون لكن. يا نعيم يكفي أنني أشم فيك الآن رائحة القدس.
- ذكرني بأهلك أين يسكنون؟
- نحن نسكن في وادي الجوز، وأنت؟
- أنا يا حمدان أهلي يسكنون في البلدة القديمة. في الطريق التي تتفرع يمينا عندما تنزل من باب العمود، وتصل باب خان الزيت.

- تقصد الشارع الدي يبدأ من محلات طقش؟
- تماما محل عاهد طقش، هل تذكره؟
- طبعا وبجانبه مطعم أبو دلو بياع الفلافل والحمص.
- عليك نور.
- عليك أنور.....ها ها ها.

بعد أن تناولا طعام الغذاء سأل حمدان نعيما:
- هل يوجد لديك محاضرة؟
- لا.
- حسنا هيا معي لننقل أغراضك إلى شقتي.
- بهذه السرعة؟ علينا إخبار مسؤول السكن الداخلي.
- وما المانع خير البر عاجله. لا تقلق بالسكن الداخلي سنخبرهم غدا. هل أغراضك كثيره؟
- كلا حقيبة ملابس وحرام اشتريته قبل يومين.
- لا تهتم عندي كل ما يلزمك. هيا بنا.

بعد ساعتين كان نعيم قد انتقل إلى شقه حمدان التي تقع على شارع وايت بير ليك، على بعد خمس دقائق عن الكلية، فقد ساعده حمدان في نقل كل شيء بسيارته، قال له:
- يمكنك الحضور معي للجامعة دون الحاجة للباص لكني طبعا أشتغل بعض الأيام وفي تلك الحالة سأتركك تذهب، وتعود وحدك.
- لا تقلق علي تعودت على استخدام الباص.
- ربما في المستقبل أجد لك عملا وتوفر ثمن سيارة.
- أين تعمل الآن؟
- أعمل في محل بيتزا بعد العصر حتى منتصف الليل وأحيانا حتى الثانية صباحا.
- وهل تعد البيتزا؟
- لا طبعا. أنا مهمتي توصيلها للزبائن، للبيوت والمحلات، إضافة إلى الراتب أحصل على البقشيش من هنا وهناك، أحيانا أعمل مائة دولار.
- في الأسبوع؟
- أسبوع؟ في الليلة الواحدة.
بلع نعيم ريقه وقال:
- مائة دولار في اليوم، والله مهندس في بلادنا لا يحصل على هذا المبلغ.
- شد حيلك وإن شاء الله أجد لك عملا. ماشي؟
- ماشي يا حمدان.
- الآن اذهب ألى الحمام، وبعد ذلك أستحم أنا ونكمل السهرة.
- لماذا لا تبدأ أنت بالاستحمام.

- لا يا نعيم، أنسيت؟
- أنا ضيف، حتى متى؟
- لأربعين يوما.
- أربعون يوما؟
- لا تغضب ثلاثون يوما.
- لا يا عم، ثلاثة أيام تكفي.
- ليكن ثلاثة، والآن اذهب إلى الحمام ودعني أتصل بجودي وشيلا لعلنا نسهر اليوم لأنني غدا سأكون مشغولا في البيتزا.

(٥)

شعر نعيم بيد تحركه، وسمع صوتا بالإنجليزية يقول له:
- انهض إلى الفطور.

استمر في نومه غير آبه بالفطور، فلم يتعود أن يتناول فطوره بهذه الساعة المبكرة.
مرة أخرى قال له نفس الشخص.
- هيا انهض ستتأخر عن الفطور، ولن تستطيع بعد ذلك أن تعوضه.

نظر حوله، فلم يجد حمدان.
كان في حلم إذن، لماذا نحلم بالأشياء الجميلة، ونحن في الظروف الصعبة، وعندما نكون في لحظة فرح تهاجمنا الأحلام السيئة؟
كان بين اليقظة والنوم، لا يزال النوم يشده إليه بقوة بينما شمس الصباح تغسل وجهه بنورها المشع، احتاج لثوان كي يتذكر أنه في سجن (دولوث)، قال له (فريدي):
- هيا إلى الفطور، أسرعْ. ثم غادر الغرفة.

بعد ربع ساعة كان نعيم في طريقه إلى قاعة الأكل، صباح جديد، كانت الشمس ترسل أشعتها أمامه، فالمتجه بالطريق من القسم إلى قاعة الطعام يواجه الشرق حيث الشمس وأشعتها المتجهة مباشرة إلى عينيه دون استئذان، كان السجناء أمامه يتقاطرون من كل البنايات باتجاه القاعة، لكن حركتهم لا توحي بازدحام شديد كما شاهد يوم أمس أثناء العشاء فقد كانوا كطابور الجيش.
دخل القاعة وبعد أن حصل على الفطور، بيضتان مسلوقتان، وقطعتا خبز، وحليب، وبعض المربى، جال بنظره فوجد جلال يجلس حول طاولة بالقرب من إحدى الزوايا، أشار له بيده، فاتجه نعيم نحوه بسرور:
- صباح الخير.
صباح النور، كيف أصبحت بعد أول ليلة.
- الحمد لله.
- هل قلقت؟
- آها، طبعا أول ليلة ربما تكون صعبة.
- الأولاد، الزوجة، الأهل، كلنا مررنا بتجربتك. لا تفكر بكل ذلك. إن تركت للعواطف أن تسيطر عليك ستشعر بطول المدة. عليك التأقلم مع الموضوع.
- سأحاول.
لحظات حضر بعض السجناء العرب وانضموا إليهما،

سأل نعيم:
- أين حسن؟
- حسن؟ لماذا يأتي للفطور فهو يحمل في جيبه ما يريد إلى الغرفة.
نظر نعيم مستغربا، فقال له جلال:
- قصد ريمون حسن يهرب الأكل من المطبخ، ويبيعه للسجناء.
- كيف؟
- قصة طويله ستعرفها لاحقا.
فقال صالح:
- يمكنك أن تشتري منه إن أحببت.
- وهل يسمحون بادخال الفلوس؟
- لا طبعا لا يسمحون والتبادل هنا بين السجناء بطوابع البريد.
- طوابع البريد؟
- نعم طوابع البريد؟
- الطوابع التي نضعها على غلاف الرسالة، نشتريها من محل السجن لاستخدامها في المراسلات، تستخدم كوسيلة تبادل في السجن. مثلا حبه البندورة بطابع، البصلة بطابع، حبة فلفل أخضر بطابع، قطعة دجاج مطبوخة ثلاثة طوابع، غير مطبوخة بطابعين، وهكذا.
- غير مطبوخة؟
- نعم ومن يشتريها يطبخها.
- وهل يطبخون في الغرف؟
- طبعا.
- وكيف يطبخونها إذن؟
- سرا باستخدام المايكرويف، ستشاهد كل شيء في مقبل الأيام.
شريف: هناك سجناء مهمتهم طهي الطعام وبيعه للسجناء مثلا المكسيكان يحضرون البريتو والهاشمالي ويبيعونها بثلاثة طوابع.
ريمون: هناك من يعمل على تبريد الكولا ويلف على البنايات يبيع العلبة بطابعين.
- وماذا يستفيد؟
- يشتريها بالصندوق ويكسب الفرقية.
- سوق تجاري.
- عليك نور سوق تجاري نعم سوق تجاري. وأكثر شخص مستفيد هو حسن. لا يترك شيئا بالمطبخ لم يسرق منه.
- ضاربها بعرض الحائط. لا يهمه شيء يقول هذه حكومة لصوص هم يسرقونا ونحن نسرقهم.
فقال شريف:

- المشكلة هم يسرقون الملايين ونحن مثل النمل الذي يفرح عندما يحصل على حبة قمح.

علق ريمون:

- المهم الطوابع هنا لكل شيء حتى إذا أردت حلاقة شعرك، مع أنها مجانية إلا أن السجين المكلف بالحلاقة لا يحلق لك إلا إذا دفعت له ستة طوابع. ولا تستطيع أن تشكو عليه سيعدونك جاسوسا للإدارة ويكرهك كل السجناء.
- جلال: ليس هذا فقط ولكن إذا اضطر أن يحلق شعرك مجانا سيقصه بطريقة لا تعجبك تتمنى بعدها لو دفعت له عشرة طوابع.

نطر ريمون إلى ساعته وقال:

- اقتربت الساعة من السابعة إلى الشغل يا شباب.

قال جلال لنعيم:

- عد الآن إلى غرفتك رتب السرير كما يظهر في الصورة المعلقة على باب القسم في الطابق الأول، وبعد ذلك يمكنك الذهاب إلى المكتبة أو غرفة الألعاب، ولكن بما أنك سجين جديد وغير مسجل في عمل بعد يجب عليك عند خروجك من القسم (في ساعات العمل الرسمي) حتى الثانية مساء أن تسجل اسمك ورقمك على اللوحة المعلقة عند مدخل باب القسم. ستراها أمامك وبجانبها قلم. سجل ساعة خروجك وساعة عودتك، لا تنس فإذا بحثوا عنك في العمارة ولم يجدوك وكنت غير مسجل ستتعرض لتوبيخ، وربما عقاب.

هز نعيم رأسه وقال:

- حسنا سأفعل.
- إذن سنلتقي بعد الظهر.
- إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

(٦)

أسبوع كامل مر على سجنك في (دولوث)، وما زلت غريبا عن هذا السجن، غريبا عن نزلائه، غريبا عن كل ما فيه، لم تتأقلم بعد، كانت صدمة السجن قوية، رغم أنك جربت السجن في فلسطين المحتلة الذي يعد هذا السجن مقارنة به كأنك في نزهة.
تشعر بالصدمة، صدمة قوية هزتك من الأعماق، لكنها لم تفقدك صوابك بعد، لعلها أيقظتك من غفوتك، أو أحلامك، كلا أيقظتك من أوهامك، تذكر ذلك جيدا.

في هذا اليوم خرجت من القسم بعد وجبة العشاء لتجلس في المكان البعيد من الساحة كما تفعل أحيانا تراقب غروب الشمس الذي أعجبك، وشد انتباهك لأنك لم تره من قبل بهذا الجمال، هذه المدينة غروبها يثير الإعجاب، فقد كانت السماء بغيومها وأشعة الشمس التي تضربها ترسم لوحة فنية أشبه بلوحات بيكاسو، كان منظرها يجلب السعادة للنفس، كأنك سجنت لتكتشف أنك أهملت الكثير من اللحظات السعيدة التي كان عليك أن تغتنمها، فالسعادة والتمتع بالأشياء ليست دوما مكلفة الثمن وحكرا على الأغنياء.

كانت طيور السيجَل (النورس) تملأ الجو تزقزق لعل أحدا يطعمها، فقوانين السجن تمنع السجناء من إطعامها، وتعاقب من يلقي إليها بطعام حتى لو كان من المهملات، لأنها تعيق تحليق الطائرات في المطار العسكري القريب من السجن، حيث يقوم الجنود هناك بين الفينة والأخرى، بصيده بالمئات، لكنه يقاوم بالتكاثر، وينتصر عليهم.
وقفتَ بعد تأمل لم تعرف عدد دقائقه، وبدأت بالسير، وحينما وصلت إلى الطريق التي أمام غرفة المكتبة قررت أن تواصل سيرك لتشاهد السجناء الذين يلعبون هناك كرة القدم.

كان الملعب يقع محاذيا للأسلاك التي تفصل السجن عن الشارع الرئيسي حيث السيارات تمر أمامك ذهابا وإيابا تتفرج عليها، وركابها يتفرجون عليكم.

عندما اقتربت من العمارة الصغيرة التي تفصل الطريق عن الملعب سمعتَ صوتا يغني بالعربية، فاجأك وأثار انتباهك، وهز بدنك وأوقظ فيك الحنين.

تابعتَ سيرك فازداد الصوت وضوحا عندما اقتربت أكثر من العمارة. وقبل أن ترى صاحب الصوت تسمرتَ في مكانك... ربما استغربت الأغنية.
أغنية طالما سمعتها وأنت في المدرسة في القدس.
بدأت تتمايل طربا مع الصوت القادم من خلف البناية.

تحت السجر يا وهيبة
ياما كلنا برتقال
كحلة عينك يا وهيبة.....
جارحة قلوب الجدعان

الله ما أعذب هذه الكلمات،

مددت رأسك من طرف البناية لترى منبع الصوت كي لا تفسد رؤيته لك مزاجَه، فيتوقف عن الغناء.

رأيت شريفا يجلس على الحشيش مسندا ظهره على حائط العمارة، وحيدا ينظر إلى الأرض، كأن لعبة كرة القدم لم تكن تهمه، كان متجليا... يغني بوجع وليس بفرح، كأنه يغني ليخفف من ألم في داخله.

اقتربتَ منه، وجلستَ بجانبه.
انتبه شريف، وعندما شاهدك صمت وبدأ يجفف دموعه ثم قال:
- أهلا يا نعيم.
- إيه يا شريف لماذا سكت عن الغناء؟
ضحك شريف وقال:
- صوتي وحش!
- وحش؟ صوتك رائع. يا شريف زمان عن محمد رشدي.
- أكنت تسمعه؟
- طبعا، صياد، يا عدوبه، لكن قل لي، لم كنتَ تبكي؟
- ذكريات.
- اشتقتَ لمصر؟
- مصر، والأولاد، وزوجتي، وأهلي وناسي.
- كلهم في مصر؟
- طبعا، في الفيوم.
- تركتهم من زمان؟
- من ١٥ سنه.
- ماذا ١٥ سنة؟ ألم تزرهم ولا مرة؟
- كل سنتين أو ثلاثة كنت أزورهم شهرا.
- فقط؟ ما هذه القسوة يا شريف؟
- خليها على الله يا نعيم. أتريد أن تشعرني بالذنب أكثر مما أنا فيه؟

- لماذا لم تحضرهم إلى هنا؟
- أريد العودة أنا لمصر وأعيش هناك.
- عين العقل، لكن لماذا تركتهم كل تلك المدة؟
- كنت مضطرا يا نعيم. ماذا أقول لك؟
- قل وفضفض ما في داخلك.
- عندما جئت إلى أمريكا لولاية (نيوجرزي)، اشتغلت عند بقالة، يملكها واحد مصري، بعد عامين سافرت الفيوم، أمكث عن الأهل شهرا وأرجع، كان معي فيزا لخمس سنوات. بعد عودتي قلت يا ولد يا شريف لماذا لا تتزوج واحدة أمريكية، وتأخذ الجنسية وتريح نفسك. وبهذا يصبح بإمكاني البدء بمشروع تجاري لوحدي. تيست وتزوجت.
- وزوجتك بمصر؟
- اتفقت معها على ذلك.
- ووافقت؟
- على مضض وعملنا طلاقا صوريا. وتزوجت هنا امرأة أمريكية بيضاء، وزنها ضعف وزني، من أجل الإقامة.
- وبعدين؟
- الاقامة أخذت ثلاث سنوات، لأن المهاجرة لم تقتنع أنني تزوجتها لأنني أحبها. وعندما حصلت على الإقامة قررت البقاء معها حتى الحصول على الجنسية، طمعا مع أنه لو طلقتها سأحصل على الجنسية بعد سنة ونصف زيادة، فاستمر زواجي معها أكثر من سبع سنوات وما إن حصلت على الجنسية حتى قررت طلاقها. لقد أتعبتني.
- هل لك منها أبناء؟
- طبعا ولد وبنت.
- لماذا؟
- ادعت أنها تأخذ مانع للحمل لكنها خدعتني. كما أن المهاجرة لم توافق على منحي الإقامة حتى عرفت أن زوجتي حامل.
- وطبعا الطلاق أخذ فترة في المحاكم.
- كأنك معي، سنتان في المحاكم وما إن انتهينا وأخذت كل ما لها، قررت المحكمة أن تمنحها الحضانة مع أنها لا تصلح لتربية أولاد، وأخبرتني المحكمة أن أدفع لها نفقة فوق طاقتي، فقررت العودة لمصر مكتفيا بما أنا فيه.
- وماذا حصل لك بعد ذلك؟
- بعت كل أملاكي، والمحل التجاري الصغير الذي أملكه، وقررت اخذ أولادي معي دون علم أمهما، فأقنعتها أن تسمح لي بالسفر معهما لكندا لرحلة تزلج، فوافقت بعد إقناع، وهناك أخذتهما للمطار بعد أن أعلمتهما أننا سنسافر إلى مصر، بلدنا.
وفي مطار كندا حصلت المفاجأة.
- خيرا؟

- أحمد ابني أبلغ سلطة المطار أنه لا يريد السفر إلى مصر وأنني سأسافر به بدون علم أمه.
- وطبعا اعتقلوك؟
- تماما وسلموني إلى أمريكا، وهناك تمت محاكمتي بتهمة خطف أولادي وحكموني بالسجن مدة ثلاث سنوات أمضيت أكثر من نصفها.
- ثلاث سنوات؟
- ومنعوني من رؤية الأولاد، وأجبروني أن أستمر بدفع النفقة.
- كمان؟
- كل ما أتذكر أولادي وزوجتي بمصر ألعن أمريكا، واليوم الذي جئت فيه إليها.
- أكيد أولادك صاروا شبابا؟
- ابني الكبير عمره عشرين عاما، ويدرس في جامعة عين شمس، كلية التجارة. وابني الثاني أصغر منه بعامين يعمل في تصليح السيارات في الفيوم. وعندي بنت صغيرة عمرها عشر سنوات، ما زالت في المدرسة.
- حكايتك حكاية يا شريف.
- مثل حكايات ألف ليه وليلة.
- وأولادك الأمريكان؟
- قل لي ماذا أعمل؟ لا أعرف أصلا أين هم الآن، وما الولاية التي يعيشون فيها، فقد علمت أنهم غادروا الولاية بعد الحادث.
- خلاص يا شريف، هذا قدرك، وأين نهرب من أقدارنا؟
- وانت ما قصتك يا نعيم؟ هل معك جنسيه؟
- قصتي طويلة يا شريف. مثلما كان عبد الحليم حافظ رحمه الله يغني ويقول:
لو حكينا يا حبيبي نبتدي منين الحكاية؟
- يبدو أن حكايتك أكثر تعقيدا.
- ستمل مني لو تحدثت.
- أبدا أنا والله ارتحت لك، لعلي بعد أن أستمع لقصتك، أشعر أنني لست وحيدا بمصائبي.
- ما رأيك أن ننهض ونسير حول الملعب نستمتع بهذا الجو الجميل، ونتبادل الحديث؟
- قم، هيا بنا.

في الطريق، قال شريف:

- تفضل يا نعيم، كلي آذان لك.

تنهدتَ كمن يستعيد تاريخا مضى منذ ألف سنة.

(٧)

بعد حضوري إلى الولايات المتحدة والتحاقي بكلية سنشري في منسوتا بدأت قصتي معها، هناك تعرفت عليها. أذكر ذلك تماما كان يوم ثلاثاء من العام ١٩٨١ لا أذكر التاريخ، كنت أجلس في المكتبة أجيل ببصري يمينا وشمالا فالتقت عيناي بعينيها، فابتسمت لها وهمست لها:

- هاي.

فردت علي بابتسامة ساحرة وغمزتني. وصلتني الرسالة، ظللت أراقبها حتى خرجت فلحقت بها. لا أدري كيف تجرأت وفعلتها، لعله صديقي حمدان الذي شجعني على ذلك فقد كان جريئا في اقتحام عالم النساء، لم تسلم فتاة من ملاحقته، لكنه كان محبوبا لديهن، لا أدري ألأنه كان طويلا ورفيعا، ووسيما أم لأنه كان متحدثا لبقا؟

عندما اقتربت منها قلت لها:

- اسمي نعيم، هل يمكن التعرف عليك؟

وقفت كأنها أرادت مبررا للحديث معي.

- أنا نانسي مكين، سعيدة بالتعرف عليك.

- هل يمكن أن أدعوك لفنجان قهوة في الكافتيريا.

فكرت قليلا ثم قالت:

- نعم، عندي نصف ساعة.

- نصف ساعة؟ لا بأس هذا لطف منك أن تمنحيني وقتك الثمين.

شعرت بالسعادة لجوابي وقالت لي:

- من أين أنت؟

- من أمي ها ها ها.

ضحكت وقالت:

- أنت كوميدي. أقصد من أي بلد؟

- أنا من فلسطين.

- من إسرائيل؟

- لا من القدس ـ فلسطين.

- ولكن القدس عاصمة إسرائيل.

- لهذه قصة طويلة، سأشرحها لك.

تتالت اللقاءات، شرحت لها قصة فلسطين بشكل مختصر حتى لا تمل مني، فالناس هنا لا يحبون السياسة، فأصبحت من مؤيدينا. ومع الأيام أصبحنا صديقين حميمين. صرنا نسهر معا، ونلهو معا، حتى استسلمت لي بكل جوارحها.

كانت فتاة رائعة، رائحة عطورها كانت تجذبني نحوها بقوة، خفة دمها، باختصار وقعت في غرامها، وكيف لي أن أقاوم جمال امرأة تزوروني كل صباح؟
في أحد الأيام كنت معها في الغرفة وحدنا في المساء، وكان حمدان يعمل في البيتزا، قلت لها:
- نانسي، أحبك.
فقالت لي: برهن على ذلك؟
فقبلتها قبلة طويلة. فقالت:
- لم أقتنع.
فألحقتها بعشرات.
فقالت:
- لا أزال مترددة.
وظلت على ترددها حتى خفت صوتها نهائيا ولم تعد تستطيع الحراك، فهزت رأسها تعلن موافقتها.
وفي اليوم التالي سألتها:
- هل اقتنعت الآن؟
- نعم، وأنا أحبك.
- برهني لي على ذلك.
نظرت وقالت:
- ماذا تريد أن أفعل لك؟
فقلت لها:
- أن تتزوجيني.
- نتزوج؟
- نعم أعندك مانع؟
هزت رأسها وقالت:
- لا لامانع عندي.
- حسنا متى نبدأ بإجراءات الزواج؟
- سأحدث أمي وأبي وسنبدأ بتحضير الأوراق.
نظرت لي وسألتني:
- أين سنسكن؟
- سنبحث عن شقة جديدة، أنسيت أنني استلمت عملا جديدا الآن؟
- أحبك. وعانقتني من جديد.

خلال ثلاث سنوات تركت الدراسة، وكونت رأس مال محترم فاشتريت بيتا صغيرا في منطقة أوكديل، بالتقسيط، حيث كنت أدفع حوالي ألف دولار شهريا. وأسست معرضا للسيارات، وانطلقت في عالم التجارة، أنهت نانسي الجامعة وأصبحت موظفة في بنك «نورث وست»، وأنجبت لنا طفلا سميناه سليم. كانت حياتنا سعيدة حتى أنني كنت دائما أقول لصديقي حمدان:

- فكرتك عن الفتيات الأمريكيات خاطئة، ها هو زواجنا يستمر، وحياتنا سعيدة. لكنه كان يقول لي:

- أنت الآن تلحس العسل انتظر حتى يخلص وسترى.

فكنت أرد عليه مباهيا بزوجتي.

- لن يفرق بيننا سوى القدر.

كانت نانسي سعيدة معي تقوم بواجبها كأم، وزوجة وموظفة على أكمل وجه. وكنت بالمقابل لا أترك مناسبة إلا وأسافر معها إلى إحدى الولايات للاستجمام، كما سافرت معها إلى المكسيك، وكندا وأخذتها معي في إحدى السنوات إلى فلسطين لزيارة الأهل. لقد أحبت القدس كثيرا، وأعجبتها مأكولاتنا الشعبية مثل الحمص والفلافل.

لكن .....

سعادتنا لم تدم طويلا.

في أحد الليالي كنت قد عدت مبكرا، كانت نانسي غير موجودة في البيت، اتصلت بأمها فقالت لي أنها تركت ابننا عندها وذهبت مع صديقاتها. ظللت أنتظرها حتى عادت بعد منتصف الليل كغير عادتها، ورائحة الخمر تفوح منها. قلت لها:

- تأخرتِ يا نانسي، أين كنتِ؟

نظرت لي وقالت:

- كنتُ في البار.

- في البار؟ ولكننا لا نذهب إلى البار.

سكتتْ ثم صاحت:

- أنا لا أستطيع أن أتحمل الحياة معك.

لا تذهبي إلى البار، لا تذهبي إلى النادي الليلي، لا تريدني أن أرقص مع أحد. لقد مللت، هذه ليست حياة. هذا جحيم.

كانت أول مرة تحكي معي بهذا الأسلوب الجاف. واعتقدت أن الخمر سبب ثورتها تلك، فحاولت أن أهدئها حتى الصباح لتتخلص من حالة السكر لأعرف كيف أتفاهم معها.

قلت لها:

- أنت الآن في حالة غير طبيعية. سنتحدث غدا اذهبي ونامي.

- لا أريد النوم. هل تريد أن نكمل السهرة؟

- سنكملها معا، ما رأيك بفنجان قهوة؟

- قهوة؟ ها ها ها أنت مضحك. تريد أن تذهب حالة الانبساط، لا لا لا.
- نانسي اجلسي هنا أنت بحاجة للراحة. في أي بار كنت؟
- في البار الموجود على سنشري اسمه، اسمه بلاك... نسيت اسمه.
- تقصدين المطعم والبار الموجود على شط بحيرة صغيرة بجانب الطريق السريع ٩٤؟
- تماما تماما هو ذاك.
- وهل كنت وحدك؟
- لا طبعا كنت مع بعض الأصدقاء.
- أصدقاء عمل؟
- لماذا أخبرك؟ هل أنا قاصر؟
- ماذا فعلتِ هناك؟
- شربنا، تسامرنا ورقصنا...
- ورقصتم؟!

كنت قد وصلت إلى قمة الغضب التي يصلها زوج. لكني لم أكن أعرف ماذا أفعل. والحمد لله أنني تماسكت أعصابي، ولم أضربها أو أقتلها لدخلت السجن منذ ثلاثين عاما.
تركتها تهذي وتقول ما لديها، وتحملت كل إهاناتها، وفي الصباح عندما راجعتها فيما قالت لم تنكر شيئا ليس لأنها كانت تتذكر كل ما قالته ولكن لأن ما قالته كان حقيقة موقفها الذي ظلت تخفيه عني طوال فترة من الزمن إلى أن جاءت الفرصة لتقذفه في وجهي دون خجل.

- نانسي لماذا كل هذا؟
- نعيم الحياة معك أصبحت مملة، أنا لم أتعود الانقطاع عن النوادي الليلية والبارات. لهذا قررت يوم أمس الاستماع لنصيحة أصدقائي.
- نصيحة أصدقائك؟ وما هي؟
- أن نفترق!
- أن نفترق؟ لهذا إذن ذهبت إلى حفلة أصدقائك في البار؟
- كانت سهرة جميله، أفضل من سهراتك مع حمدان وأصدقائك العرب.

نعيم كنا قبل الزواج نسهر معا في النادي، ترقص معي، ولكنك تغيرت بعد ذلك. ماذا حصل؟

- نانسي، أصبح لنا الآن عائلة وابن.
- ماذا يعني هذا، أن نحبس أنفسنا في البيت؟
- ألم نزر المكسيك، وكندا، ونورث كارولينا، ومونتانا وفلوردا و....

ماذا تريدين أكثر؟

- أريد العودة للبار؟ للأصدقاء للنادي الليلي، للرقص. آه لقد شربت يوم أمس تعويضا عن شهور مضت.
- واضح ذلك، رائحتك لا تزال تفوح خمرا.

- وهل حزرت ماذا شربت؟
غاظتني بسؤالها كأنها تريد استفزازي.
تركت البيت وذهبت إلى العمل، غاضبا، فقد شعرت أن شهر عسلنا قد انتهى كما قال حمدان وأنني سأشرب العلقم من الآن فصاعدا.

كان السؤال الذي يطرح نفسه علي بإلحاح طوال الطريق من «أكديل» إلى «سانت بول»:
- ماذا لو أصرت على الطلاق؟
وقبل أن أجيب عليه كنت أسأل نفسي: حتى لو لم تطلب الطلاق هل أقبل أن أتركها تسهر في البارات والنوادي الليلية مع أصدقائها؟

كنت محتارا هل أصارح حمدان بما حصل؟ أم أخفي عنه حقيقة ما جرى؟ ماذا لو عادت وتأسفت وطوينا صفحة الليلة الماضية سأكون قد كشفت سرا لحمدان سيظل يذكرني به كل لحظه.
سخرت من تساؤلاتي، هل فعلا تركت لي فرصة لإصلاح ما حصل؟ هل ما جرى نهاية سعادتنا؟ أم علي التروي قليلا قبل قطع الشعرة الأخيرة، فما زال ابننا يربط بيننا. ماذا سنفعل لأجله؟ هل ستتركه لي؟ أم ستطلب حضانته؟
تساؤلات إثر تساؤلات ظلت تنهال على رأسي حتى وصلت المعرض. كنت ذلك اليوم قلقا، لولا انشغالي ببعض السيارات الجديدة التي وصلتني من المزاد لانفجرت من شدة الغيظ.
ما زلت مترددا بإخبار حمدان، لكنه قطع علي الطريق. فوجئت به أمامي يقرأ أفكاري أو لعل إلهاما نزل عليه وطالبه بأن يزورني.
سألني بعد أن سلم علي:
- نعيم عاش من شافك. أين أنت ألا تسأل عني؟ شغلك المعرض أم نانسي؟
حاولت أن أضحك لكني لم أستطع، تنهدت وقلت له:
- أنت الذي انشغلت عني بعد أن اشتريت محلك التجاري الجديد.
- أبدا يا نعيم لا يشغلني عنك شيء، فعندي عمال، ومعظم وقتي جالس في المكتب أرد على الهاتف.
- نيالك، إذن لماذا لا نسمع صوتك؟
- لهذا جئت لك.
- للزيارة؟
- طبعا وللاطمئنان على صحتك يا صديقي القديم. كيف سليم؟
- بخير أصبح الآن أربع سنوات.
صمت لحظة ثم سألني:
- أرى على وجهك علامات التعب، والغضب، هل أخبار الشغل تعبانة؟
- كلا يا حمدان، ليت الأمر يتعلق بالشغل لهان الأمر.

هز رأسه وقال:
- إذن عرفت السبب.
- وماذا عرفت؟
- انتهى شهر العسل، وبدأ شهر البصل.
ضحكت وقلت له:
- بدأ المرار، وتعب البال.
- يبدو أن الأمور قد تطورت لديك؟
ترددت قبل أن أجيبه، لكنني في النهاية حسمت أمري وقلت له:
- يوم أمس....
توقفت عن الحديث وقلت له: أرجو أن يظل ما أقوله لك سرا بيننا.
نظر إلي معاتبا وقال:
- أهذه ثقتك بي، قل فأنا أخوك، قل قبل فوات الأوان.
فتحت علبة سجاير وأخذت منها سيجارة وقدمت له واحدة، وبعد أن ولعتهما قلت له:
- يوم أمس عادت متأخرة سكرانه رائحة الخمر تفوح منها، وبعد أن سألتها قالت لي إنها كانت سهرانة مع أصدقاء لها في البار يسكرون ويرقصون.
- أين كان ابنك؟
- تركته عند أمها.
- وهل حصل شيء آخر؟
- لا أدري يا حمدان، لم أعد أثق بها وبما تفعله.
- لماذا فعلت ذلك؟
- تدعي أنني أحرمها من السهر في البارات، والنوادي الليلية، وطلبت الطلاق.
كنت أتوقع أن يهب حمدان في وجهي قائلا: أرأيت لقد حصل ما قلته لك. لكنه لا لم يقل ذلك، كان حريصا ألا يشعرني بانتصاره علي.
نظر إلي وقال:
- سواء طلبت الطلاق، أو لم تطلب فما فعلته بداية النهاية يا نعيم عليك الاستعداد لذلك جيدا، فالطلاق هنا سيدمر حياتك، لأنها ستطالب بنصف أموالك التي تعبت وأنت توفرها، وستطالب بحضانة الطفل وفوق كل ذلك ستطالب بنفقة للطفل وهي عادة نسبة من دخل الأب وليس مبلغا مقطوعا على طول.
- وما العمل الآن؟
- هذه تحتاج إلى دراسة وتفكير. لن تستطيع حماية كل شيء فالمحكمة ستطالبك بكشوفات عن كل أملاكك وربما تطلب منك عدم نقل فلوسك، لكن سنحاول حماية ما يمكن، لدي محام لهذه القضايا. سأذهب لاستشارته الآن. وفي المساء الساعة الثامنة سأقابلك في مطعم بركنز الموجود على شارع سنلنج القريب من لاربنتر.
- حسنا إلى اللقاء.

(٨)

في المساء التقينا على العشاء، كنت قد وصلت قبله وجلست أنتظره في مواجهة الباب، كي أراه عندما يدخل. وأخيرا حضر حسب موعده، فقد عودني ألا يخلف المواعيد.
جلس مبتسما وبادرني بالقول:
- عليك سحب فلوسك من البنك تدريجيا.
- وأين سأخفيها؟
- عندي.
- في البنك؟
- لا طبعا. هل جننت كيف سأودع في الحساب مبلغا كبيرا نقدا. لا تقلق علي فلدي طرق كثيرة في تصريفها، المهم يجب أن نجد مبررا لسحب الفلوس.
- وما هو؟
- القمار.
- القمار؟ لكني لا أقامر.
- ستبدأ من الليلة.
- أقامر؟ أنا؟
- سأذهب معك. لا تقلق مجرد صورة ستفيدك إن تعرضت للاستجواب في المحكمة.
- لا أستطيع الليلة. فالكازينو بعيد.
- نعيم هل طلبت شيئا؟
فنجان قهوة.
- ادفع ثمنه، وسنتعشى هناك. هيا بنا.
خرجت معه، وفي موقف السيارات خارج المطعم قال لي:
- اتبعني إلى المحل لنترك سيارتك هنا ونذهب معا في سيارة واحدة.

وصلنا الكازينوو لأول مرة أدخل عالم القمار، الأضواء، الناس، الكل مشغول باللعب، كان قد أوضح لي ماذا نفعل، كنت أذهب وأشتري (فيش) القمار ثم أنتقل من طاولة إلى أخرى، حيث يلعبون البلاك جاك، اللعب يبدأ بخمسة دولارات، أو أضعافها، فيأخذ ما لدي من فيش يذهب لاستبدالها بالفلوس ويعطيني إياها لأشتري بدلا منها، فعلنا ذلك عدة مرات، بعدة ليال كان يطلب مني أن أحتفظ بالوصولات، حتى فواتير موقف السيارة والأكل، وأخيرا طلب مني أن أشتري الفيش عن طريق كروت الائتمان لتسجل في فواتير البطاقات الشهرية.
في الطريق إلى البيت في أحد الليالي قال لي:
- في الأسبوع القادم حضر نفسك لنسافر ليومين إلى لاس فيجاس.
- لاس فيجاس؟

- نعم، لنكمل الخطة.
لم أتردد في الموافقة فقد كنت أسير تماما حسب خطته. فالعلاقة مع نانسي ساءت وبدأت هي تسحب من حساب البنك وكلما سألتها قالت إنها تشتري لوازم البيت. وقبل موعد السفر إلى لاس فيجاس فوجئت بقرار من المحكمة يمنعني التصرف بأموالي حتى تبت المحكمة بقرار الفصل بيننا، فقد شعرت على ما يبدو ترددي على الكازينو، وربما عرفت من البنك أنني أسحب بعض المال كل يوم لذلك ألغيت فكرة السفر إلى لاس فيجاس.
وعرفت أنها عازمة على تدمير كل ما بنيناه معا. كنت أحضر إلى البيت كمن يحضر إلى فندق للنوم فقط. كانت تخرج كما تريد، وتعود متى تريد، تترك سليم عند أمها. فكرت أن آخذه وأرحل، نعم فكرت بذلك، فذهبت لاستصدار جواز سفر له فطلبوا حضور الأم، لم أحسب حساب تلك الساعة كما فعلتَ أنتَ، فقد كنت أشعر أنني عكس كل الشباب العرب المغتربين. هكذا هم الذين يلعقون العسل لا يفكرون أبعد من أنوفهم.
بعد شهرين كان قرار المحكمة يصب في صالحها. البيت لها، ونصف الأموال، ونصف معرض السيارات وعندما عرضت شراء حصتها رفضت، وقرر القاضي عرض المحل للبيع في المزاد وتم بيعه بأقل من قيمته وخرجت من المولد بلا حمص.
سليم بحضانة أمه، وحكم علي بدفع نفقة قرر القاضي أنها ٨٠٠ دولار شهريا لكني اعترضت على ذلك وقلت للقاضي:
- أن أمه تعمل موظفة في البنك، وستحصل على كل هذه الفلوس وعليها أن تختار أن تترك سليم في حضانتي ولن ألزمها بدفع شيء أو أن يكون في حضانتها دون أن أدفع شيئا.
فقال لها القاضي:
- ماذا تقولين؟
فردت قائلة:
- بشرط ألا يحضر لزيارته إلا مرة بالشهر، وبالتنسيق معي.
كنت في تلك اللحظة منفعلا، لا أريد أن أدفع لأمه شيئا أكثر مما أخذت، كان حقدي عليها قد دفعني إلى القول:
- موافق.
وهكذا حكم القاضي بالتفريق بيننا، فخرجت أبحث عن شقة جديدة ونقلت أمتعتي من بيتي، وبقي البيت وكل آثاثه لها.
كان جرحي كبيرا، شعرت بالصدمة، بالقهر، كنت أحيانا أفكر بالانتقام منها، بعد أسبوع سلمتني الشرطة قرارا ألا أقترب من البيت لمسافة ميل من كل الاتجاهات لأنني أتحرش بها. وهكذا أصبحت لا أرى ابني، بعد فترة من خلال حمدان عرفت أنها باعت البيت وسافرت خارج الولاية.

بعد البحث المضني عرفت أنها انتقلت إلى أريزونا مع صديق سابق لها.

استسلمت لقدري كمعظم الأمريكيين الذين تفصل المحاكم بينهم، وبعد سنوات صار سليم مجرد صورة في جيبي وفي ألبوم صوري، لا أعرف له أثرا ولا أين هو الآن. لا أدري إن كان ثمرة نزوة من نزوات الشباب؟ أم أنني تجاوزت الواقع الذي يفصل بيننا.
آه ماذا أقول لك، لقد أصبت الوجع في، وفتحت جرحا قديما كنت أعتقد أنه شفي تماما.

كان شريف يستمع إليك باهتمام كأنه يسمع حدوتة مصرية قديمة قبل النوم، استغل صمتك المؤقت فقال:
- يبدو أننا كلنا في الهوى سوا. لكن ألم تفكر بالبحث عنها؟
- كيف وقرار المحكمة بعدم الاقتراب منها.
- هل استسلمت؟
- أحيانا نستسلم مضطرين، وبعد فترة يصبح الأمر عادة، وشيئا تعودنا ممارسته كل يوم.
- ليت عندي قلبك.
- يا شريف أنا لا أختلف عنك لكني مع الأيام زدت عجزا خصوصا بعد زواجي من زوجتي الحالية، وانشغالي بتربية أولادي منها، وشغلي.
- هل تعتقد لو كنت بين أولادي وزوجتي في القاهرة يهون الأمر.
- نوعا ما. ماذا تفكر أن تفعل الآن؟
- لا أعرف.
- أرأيت؟ هل ستبحث عنهم؟ أين؟ هل ستوكل أحد المحققين ليجدهم؟ كم ستدفع له؟ ولنفترض عثرت عليهم. تلفون منهم للشرطة ستعود إلى السجن ربما لسنوات قادمة، فلا ترى لا أولادك الحاليين ولا المصريين.
- والحل؟
- أن تعود لمن تركتهم خمس عشرة سنة لتعوضهم حنانك الذي فقدوه.
- بهذه السهولة؟
- أعندك حل آخر؟
- لا لا حل آخر عندي. ولكن...

- انظر ريمون وجلال قادمان باتجاهنا.

(٩)

اليوم الأحد، كانت سماعة السجن منذ الثامنة صباحا تنادي السجناء المدعويين للزيارة.
كنتَ تنتظر بلهفة، فقد أخبرتك زوجتك على الهاتف أنها قادمة لزيارتك مع الأولاد.
انتقلت لتجلس على مقعد قريب من بناية الزيارة، كنت تغلي من الداخل، تحاول أن تخفي قلقك عمن حولك من السجناء الذين ينتظرون سماع أسمائهم للزيارة. كنت كما الشجرة المضطربة التي تنتظر هطول الأمطار بعد أن تلبدت السماء بالغيوم.

الساعة التاسعة صباحا صدح صوت السماعة ينادي على الفوج التالي للزيارة:

- نئيم كتينه (هكذا يلفظون اسمك نعيم قطينة)، زيارة.

خفق قلبك، وقفت، وهرولت بسرعة نحو غرفة الزيارة، فتحت الباب ودخلت غرفة صغيرة مخصصة للتفتيش قبل الدخول إلى غرفة الزيارة. كان هناك سجين آخر ينتظر. سألته:
- هل سننتظر طويلا؟
- لا أدري علينا انتظار أحد السجانين في غرفة الزيارة ليأتي ويفتشنا.
- هل يعلم أننا هنا؟
- أكيد، لقد قرعت الجرس، لكنه عادة ينتظر عدة دقائق ليضمن حضور بقية الذين ناداهم عبر مكبر الصوت حتى لا يضطر ويعود مرة أخرى لتفتيشهم.

زاد توتر أعصابك قليلا، ضغطت على شفتيك، تمتمت بينك وبين نفسك،
- الحيوان السجان لماذا لا يأتي؟
قرعت الجرس مرة أخرى ونظرت من شباك الباب فلمحت السجان قادما من بعيد، فتح الباب ونظر إليك بحقد وسألك:
- لماذا تقرع الجرس مرة أخرى؟ وبدأ ينظر إليك بغضب قائلا:
- اعلم في المرة الأخرى إذا قرعت الجرس مرتين فلن تكون لك زيارة.

كاد أن ينزع فرحتك بالزيارة، لكنك تمالكت نفسك مرغما، كي لا تزيد من غضبه، وهززت رأسك.

قدمت له بطاقتك الحمراء، نظر السجان للبطاقة، وطلب منك أن تدير وجهك للحائط وبدأ يتحسس ملابسك وجيوبك فعثر على ورقة فارغة مع قلم. سألك:
- ما هذا؟

- قلم وورقة أحيانا أكتب ملاحظات.
- ألا تعرف أنك ممنوع من حمل أي شيء معك إلى الزيارة؟
- يبدو أنني نسيتها في جيبي، هل يمكنني تركها هنا.

حملها السجان ورماها بجلافة في سلة الزبالة، وطلب منك الدخول إلى غرفة الزيارة.

توجهت فورا إلى القاعة، ما إن فتحت الباب حتى شاهدت عشرات الزوار ينتظرون أحبتهم، بحثت بينهم عمن يخفق قلبك لرؤيتهم، فلم تر زوجتك فقد أخفى الزوار السود بقاماتهم الطويلة من تحب، لكن صابر، وهيام انسلا من بينهم وركضا نحوك عندما شاهداك من بعيد، هجما عليك بقبلاتهم ولحقت بهم أمهم.
حملتهما بيديك قبلتهما ثم ضممت زوجتك حنان لهما، في لوحة عائلية كان ينقصها رسام ليرسمها على الورق، ويضيف عليها بعض ألوانه بريشته الجميلة.
كنت مبتسما أمامهم أخفيت دمعتك، حاولت ونجحت، كنت تدرك أن الدمعة في غير وقتها هزيمة، وكان كبرياؤك لا يسمح لك أن تذرف الدمع أمامهم ولو كان اشتياقا لهم، فعيونهم الآن وعقولهم موجهة نحوك، هذه اللحظة سيبنون عليها خطة حياتهم خلال غيابك، ابتسامتك اليوم ستمنحهم الدفء، والحنان، وستكون الجدار الذي يستندون إليه خلا سني غيابك، نجحت في الامتحان، فقد حولت الزيارة التي استمرت خمس ساعات إلى لحظة فرح، لعبتَ معهم، ناقشتهم، داعبتهم، هدأتَ من مخاوفهم، ورسمت لهم مستقبل العائلة القادم.

أكثر ما لفت انتباه زوجتك أن الزيارة في السجن بهذه الراحة، ومدتها طويلة بعكس زيارات أسرى المقاومة في فلسطين، ضحكت وشرحت لها أن السجون الفدرالية التي يطلق عليها الكامب أسهل من السجون الأخرى فهناك درجات من السجون بعضها لا يسمح فيها بالزيارة المباشرة ويقتصر الحديث مع السجين عبر الهاتف، ولمدة قصيرة، ويفصل بين الزوار، والسجناء عازل زجاجي، نزلاء سجون الكامب عادة غير متهمين بالعنف، وبقي على الإفراج عنهم أقل من عشر سنوات.

كنت تشرح لهم كي تشعرهم أنك سعيد هنا، وغير متضايق، كنت تخفي الحقيقة، فالسجن ليس بجدرانه، لكنه بناسه. لم تقل لهم عن هنري الأسود الذي كان صوته أكثر إزعاجا من سنوات السجن كلها، لكنك رغم ذلك كنت ترسل معه ملابسك للمغسلة حيث يعمل، مقابل عشرين طابع بريد شهريا.
فجأة سألك صابر وأنت في قمة فرحك:
- بابا لماذا أنت هنا؟
استدرت إلى حنان وقلت لها:

- لا داعي لإخفاء الحقيقة عنهما. بلغيهما براحتك بعد عودتكم من الزيارة.
نظرت إليك هيام وقالت:
- بابا أنا أحبك كثيرا، أحبك وأريدك أن تعود معنا.
- ليس اليوم، لكن قريبا سأعود. خبروني كيف أخباركم.
تنهدت حنان وقالت:
- أخبارنا بعدك سيئه، البيت موحش.
نظرتَ إليها وقلت:
- هذه أول الطريق عليكم الصبر.
صمت ثم حاولتَ التخفيف عنها قائلا:
- ستتعودون على غيابي قريبا.
فقالت لك:
- لا تقل ذلك، فأنت بيننا في كل لحظة.
وقال صابر:
- أنا أفكر بك يوميا. أنا حزين أنك في السجن. بعض الأولاد سألوني: لماذا أبوك في السجن؟ فلا أعرف ماذا أقول لهم.
وقالت هيام:
- لا يهمني ماذا يقولون أنت أشرف رجل في العالم.
ضحكتَ قبلتَهم ثم قلتَ لهم:
- ما رأيكم أن نشتري بعض الذرة نتسلى بها من الماكنة الموجودة هناك؟
- فكرة رائعة.
- كيف نشتري؟
- دعني أسأل السجان.
- من فضلك كيف نشتري من الماكنة؟
- على القادم لزيارتك شراء كرت بعشرين دولار واستخدامه في الماكنة وإن بقي شيء يمكنك استخدامه في الزيارة القادمة.
فتحت حنان حقيبة يدها واشترت أحد الكروت.
كان يوما جميلا سجلته في دفتر مذكراتك بالسجن واحتفظت به، كنت دقيقا بوصفك، فالمشاعر الجياشة لا يوصفها بدقة إلا صاحبها.
كان صوت السجان وهو يعلن انتهاء الزيارة أشدها ألما، كان جميع من في القاعة يتعانقون، حانت ساعة الفراق، لكنك كنت الأشد عناقا، كانت صورتهم وهم يغادرون قاعة الزيارة مؤلمة لك، حبست دموعك فيها حتى اللحظة الأخيرة، وما أن أدرت وجهك نحو بوابة القاعة المؤدية لساحة السجن حتى انهمرت دموعك كشلالات نياجارا.

(١٠)

جلستَ في مكتبة السجن الصغيرة، وبدأت تكتب رسالتك الجديدة إلى زوجتك، فقد أعادك السجن إلى عالم الورق، والرسائل بعدما كانت التكنولوجيا خارجه قد نقلتك لعالم رقمي أنساك الرسائل الورقية، لأنها صارت من مخلفات الماضي.
هل تذكر عندما كنت في سجن «بئر السبع» في فلسطين المحتلة؟ كانت الرسائل والزيارات القصيرة نصف ساعة كل أسبوعين هي متنفسك الوحيد نحو الحرية، ها أنت تقارن، بين الموقفين، هناك كنت تكتب بنفس الأسرى، وصمودهم، وتتحدث بعنفوان المقاومة، كنت تختار الكلمات بعناية لأن السجان قد يعطل الرسالة إن لم تعجبه فحواها. أما اليوم فقد اختلف السجان، واختلف السجن، والسجناء، واختلفت المشاعر. هناك كنت تشعر بالراحة النفسية فأنت بين رفاق، وإخوة دربك، بين أسرتك الحقيقية، كنت تشعر أنك تسجل صفحاتٍ مشرقةً من التاريخ. كنتَ فخورا أنك مع رفاق أمضوا خيرة سنوات شبابهم من أجل الوطن الذي كنت تشعر أنك مسؤول تجاهه.

هنا اختلفت المشاعر، فأنت في الغربة، والسجن، رغم هامش الحرية داخله، رغم أنك قادر على التنقل حيث شئت من قسم لقسم، ومن ساحة لساحة، رغم دار السينما التي تعرض لك أفلاما كل أسبوع، رغم التلفزيون الموجود في كل قسم، رغم المكتبة التي فيها الكثير من الكتب .... رغم الزيارات الأسبوعية التي تستمر لسبع ساعات، وثماني زيارات شهريا، فأنت هنا في سجن حقيقي، نزلاء السجن اختلفوا، وجودك بينهم وحده سجن، فهم في واد وأنت في واد آخر، حتى السجناء العرب هنا مختلفون، اهتماماتهم مختلفة، مصائبهم، نكباتهم، أحلامهم، كلها مختلفة، لا تدري هل هم ضحايا غربة اختاروها بأنفسهم؟ أم أجبروا على اختيارها؟

أمسكت القلم وبدأت تكتب بعض مذكراتك:

بعد العشاء التقيتُ مع بعض السجناء العرب، كنا أربعة نسير في الساحة مثل مئات السجناء ذهابا وإيابا كعادتنا كل مساء، فالطقس جميل، والمشي ضروري للصحة. عندما وصلنا عمارة التلفون تركنا جوني ذهب يتصل مع زوجته، في الجولة اللاحقة كان ينتظرنا قرب بناية التلفونات. سأله حسن:
- انتهيت من المكالمة بسرعة، يبدو أنك لم تنتظر على الدور؟

كان غاضبا. قال لنا:
- تحدثت لمدة دقيقتين فقط.
سأله ريمون:
- نفس المشكلة؟
هز رأسه.
- ماذا حصل؟
- ابنتي لم تعد يوم أمس حتى الثانية بعد منتصف الليل وعندما سألتها أمها أين كنت قالت: أنا حرة.
سألته:
- كم عمرها؟
- ١٨ سنة. لقد رفضت الحديث معي فغضبت وأغلقت الخط.
فقال حسن:
- عليك التحلي بالصبر.
- لقد حاولت من قبل، لكنها لم تعد تسمع لي. تعتبرني سبب مشاكلها.
- أنت؟ كيف؟
- كانت مخطوبة لأحد الشباب العرب من الأردن ولكن عندما أدانتني المحكمة، فقد فسخ خطيبها الخطبة، قائلا: لن أتزوج فتاة والدها مهرب مخدرات.
- الحيوان ما علاقة البنت بأبيها؟
قلت له:
- لهذا شعرتْ ابنتك أنك سبب خسارتها لخطيبها؟
هز رأسه ثم قال:
- هذا ما حصل، لو كان يحبها لم يتركها.
- حاولْ أن تتفهمَ مشاعرها، ربما أصيبت بصدمة، يجب أن تعترف أنك سبب الإحباط الذي تشعر به.
- يا نعيم، أنا لم أتاجر بالمخدرات، لقد كنت أتاجر بالدواء (سودافيد) كان قبل سنوات مسموحا وقانونيا، ونحن نشتريه من المصانع.....
- هل تريد القول أنك لا تعرف لماذا كان التجار يشترونه منك وليس من الشركات مباشرة، ونقدا؟
- طبعا أعرف.
قال حسن:
- يشتريه تجار المخدرات، يطحنونه ويخلطونه (بالمث).
- وما ذنبي أنا؟ أنا أبيعه وهم أحرار ما يفعلون به. مثل من يبيع السلاح قانونيا، لا يعرف أن من يشتريه سيستخدمه في قتل أحد المواطنين.
سكت ثم تابع حديثه:

- ها أنا أدفع الثمن. لكن الأرباح كانت مغرية جدا ولا تعوض.
كنت عائدا في آخر صفقة لي مصمما ألا أعود لها مطلقا. كان معي ثمانية ملايين دولار نقدا. كانت الفلوس في السيارة، وكان معي أحد أقربائي الذي قدم حديثا من لبنان، كان يعمل معي ولم يكن يحمل كرت الإقامة بعد.
اوقفنا شرطي في الطريق السريع، لا أعرف إن كان يراقبنا، ففتش السيارة، وعثر على الملايين، طلب قوة أخرى، وخلال التحقيق مع قريبي اعترف لهم بكل شيء بعد أن وعدوه بكرت الإقامة، باعني ابن ال...
وشهد علي بالمحكمة، فحكموا علي بالسجن سبع سنوات، وعندما علقت على قرار الحكم قائلا:
- أرجو أن تنام الليلة براحة أيها القاضي. زادها القاضي لثمانية.
- ألم تستأنف؟
- لمن أستأنف؟ المدعي العام قال بأن هذا أقل حكم، سنة عن كل مليون مع أنهم أخذوا كل الملايين. وحذروني إن طالبت قدمت استئنافا أن يطالبوا بإنزال العقوبة القصوى لي، عشرون سنة.
- إذن اتكل على الله، وطول بالك. كلنا ندفع ثمن أخطائنا.
- أنا السبب طمعت للفلوس.
- كم سنة أنت في أمريكا؟
- لقد جئتها وعمري ست سنوات، كان ذلك منذ أربعين سنة. هاجر أبي مع أمي وأنا صغير. مات أبي، وأمي ما زالت على قيد الحياة.
سألتهم:
- هل تعتقدون أننا ندفع ثمن الغربة؟
سكتوا جميعا، كأن طيرا على رؤوسهم، كان كل منهم يبحث عن إجابة يقنع بها نفسه، قبل أن يقنعنا.
تعبنا من المشي واتفقنا على التفرق، فعاد كل منا إلى غرفته نجتر بعض ما في أنفسنا من ذكريات.

(١١)

تسمح إدارة السجن للمسلمين بصلاة الجمعة في بناية العبادات، هكذا اسمها. وكل سجين مسلم أو مسجل أنه مسلم حتى لو كذبا يسمح له الساعة الثانية عشرة ظهرا مغادرة مكان عمله بعد التسجيل رسميا، للتوجه لإقامة الصلاة حتى الثانية بعد الظهر.
بناية العبادات كبيرة نسبيا ومخصصة للصلاة لكل الديانات والطوائف، وحسب برنامج الإدارة الذي يحدده مسؤول العبادات من إدارة السجن، فكل مجموعة لها وقتها المحدد للصلاة، وفي القاعة المناسبة، للعدد والطقوس.

بناية كبيرة نسبيا فيها عدة قاعات منها قاعة تتسع لحوالي ٢٥٠ شخصا مع مسرح ومايكروفونات، ومقاعد يستخدمها في العادة المسيحيون في صلواتهم المختلفة، فكل طائفة لها وقتها إذا يصلي المسيحيون، والمسلمون، واليهود، وأمة الإسلام، وجماعة مورش سيانس، وسكان أمريكا الأصليون، والهندوس، وغيرهم من المؤمنين بالديانات الأخرى.
ويوجد الكثير من الذين لا يؤمنون بأي دين يسجلون في الديانة التي تناسبهم للهروب من العمل بحجة الصلاة.

وفي البناية عدة غرف صغيرة فيها شاشات عرض فيديو لمشاهده أفلام دينية أو ثقافية تخدم الغرض نفسه.
لكل مجموعة خزانة مغلقة تضع فيها كتبها المقدسة، شعاراتها، وأية أفلام خاصة بها تسمح أدارة السجن بإدخالها.
المصنفون مسلمون كانوا ثلاثة أقسام منهم ثلاثون سجينا (خمسة من العرب)، والبقية من السود يقيمون الصلاة معا. وهناك جماعة أمة الإسلام يقيمون صلاتهم وحدهم في القاعة التي فيها الكراسي والمايكروفون، وكان عددهم ثمانية من السود الأمريكيين، وكذلك جماعة مورش سيانس الذين يحسبون أنفسهم على المسلمين أيضا لكن لهم تعاليمهم الخاصة المختلفة، وكان لديهم أربعة سجناء كلهم من السود.

كان إمام المسلمين سجين أسود بالثلاثين من عمره اسمه الأخ عبد الرحمان اعتنق الإسلام بعد سجنه على يد أحد المسلمين الذين سبقوه. كان من ولاية نيويورك، وقد أرسل بعد سنوات إلى (دولوث) ليقضي بقية حكمه.

قرأ الكثير من الكتب الإسلامية بالانجليزية. ويأتي إلى الصلاة معدا خطبة الجمعة باتقان. كان ذكيا يحاول ألا يثقل على السجناء فخطبته قصيرة، ويحاول دائما أن يناقش قضية من

قضاياها داعيا إياهم إلى فتح صفحة جديدة بحياتهم، وتوحيد صفوفهم، والتعلم من ماضيهم. شجعهم على عدم لعب القمار.
كان يطالب المصلين أن يرصوا الصفوف، وألا يتركوا فراغات بينهم لأن الشيطان يتسلل منها، فهمس لك جلال بالعربية: وهل الشيطان مسجون معنا؟
بعد الصلاة سلم كل واحد على من حوله، فوقف الإمام ودعاهم إلى التجمع مقابل بناية (٢١١) لأن بعض الإخوة أقاموا احتفالا للترحيب بالأخ نعيم السجين الجديد، فعندما تدخل السجن يرحب بك من بداخله، وعندما تغادره يستقبلك من خارجه، في كلا الاتجاهين هناك من ينتظرونك ويريدونك أن تكون معهم.

الشباب العرب جمعوا ما لديهم من مأكولات، ومشروبات غازية، وبعض الأكل الذي أعدوه للمناسبة، وأقاموا احتفالهم الذي دعوا إليه كل العرب بما فيهم المسيحيين، والمسلمين، وبعض أصدقائهم القريبين منهم.
كانوا حوالي أربعين سجينا، كل منهم يحمل صحنا ورقيا مليئا بالأكل، قطع من البيتزا، بطاطا، بندورة، وعلبة كولا،.... كأنهم في رحلة حقيقية، كل عدة أشخاص يتبادلون الحديث معا، كان حسن مشغولا مع ريمون وجلال بتقديم الطعام للجميع.
بعد انتهاء تقديم الأكل اقترب جلال، وهمس شيئا في أذن الإمام، فصاح بهم جميعا.
- تكبير.
فقالوا كلهم بصوت واحد:
- الله أكبر.
فأعادها مرة ثانية
- تكبير.
فرددوا بما فيهم ريمون وجوني
- الله أكبر.
قال نعيم لجلال:
- ألا تخشون من نقمة الإدارة علينا واتهامنا بالإرهاب؟
فقال ريمون:
- لقد تعودت الإدارة على تلك المناظر والتكبيرات.
- ولماذا هذا التكبير خلال الأكل؟
فقال جلال:
- هذه رسالة للسجناء بأننا مجموعة واحدة، ويد واحدة فلا يحاول أحد الزعران التحرش بأي منا على انفراد.
فأكمل ريمون.
- بهذا يحسبون حسابنا.
فقال جلال:

- أرأيت حتى المسيحي كان يكبر معنا. إنه واحد منا.
هز نعيم رأسه وقال لنفسه:
- يا للسجن وقوانينه؟!
سألهم:
- وهل هناك عصابات بالسجن؟
ليس مثل السجون الأخرى، ولكن هناك من يحاولون فرض زعرنتهم على الآخرين.
- ترى لماذا يتقاتلون بالسجن؟
- أكثر المشاكل هنا تتم بسبب القمار، ولكن قد تتم لأتفه الأسباب.
- الناس هنا نصف مجانين، من المخدرات، من وجودهم بالسجن، منهم من قضى فترات طويلة، بدون زيارات أو رسالة، فلا أهل، ولا أصدقاء، ولا مستقبل، ولا فلوس، فماذا تعتقد سيكون وضعهم.
- حتى أن بعضهم يتراهنون على من سيربح بالانتخابات.
إنها حياة الأمريكيين. الحكومة تشجعهم على القمار ثم تحاسبهم إذا قامروا بعيدا عن عيونها.
- في غرفتي سجينان أبيض وأسود، تراهنا على شيء غريب، كان الأبيض يقول لنا أن صديقته الجميلة ستزوره أخيرا في سجن (دولوث) بعد أسبوع، وكان فرحا بذلك، فاغتاظ الأسود الذي لم يزره أحد منذ سبع سنوات ولم تعد زوجته تزوره أو ترد على رسائله، أو تسمح له بالاتصال هاتفيا، فتراهن معه أن صديقته لن تزوره، وفعلا تراهنا على علبة آيس كريم، وفي يوم الزيارة، كان السجين الأبيض عابس الوجه، فقد تعرض للكمتين، صديقته أخلفت الوعد كعادتها، وخسر علبه آيس كريم.

اقترب أحد السود الأمريكيين قطع عليهم الحديث وسلم على نعيم، فقال جلال يعرف عنه بالإنكليزية.
- هذا الأخ مالك محكوم مئتا شهر.
حكمه القاضي مئة وأربعة وأربعين شهرا، وعندما سأله ماذا ستفعل بعد انتهاء الحكم فرد عليه بأنه سيعود لنفس المهنة، فرد عليه القاضي غاضبا:
- سأغير الحكم إلى مئتي شهر.
- مئتا شهر؟! يا الله، لماذا؟
- كان يتاجر بالمخدرات.
- مخدرات؟! يا أخ مالك هذا حرام!
- نعم يا أخي حرام، هذا كان زمان. أما الآن فأنا تبت عن كل المعاصي. الحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي.
يا نعيم لولا المخدرات ما سجنت وما تعرفت على الذي هداني للإسلام.
- لماذا رددت على القاضي بهذه الطريقة؟

- غباء وجهلا يا نعيم. ها أنذا أدفع الثمن. اللهم اغفر لنا. لكن أريدك أن تصلي معنا في غير الجمعة نحن نقيم الصلاة في كل الأوقات.
- وأين؟
- هنا في الساحة، أو تحت مطلع الدرج.
- ولماذا ليس في بناية العبادات؟
- هناك لدينا أوقات محددة.
- لماذا ليس بالغرف؟
- السجناء الآخرون يحتجون علينا أننا نعطل غرفهم ونحول بينهم وبين حركتهم. لذلك ممنوع الصلاة بالغرفة.
- إن شاء الله سأكون معكم.

(١٢)

لم يمض وقت طويل قبل أن أحصل على وظيفة بالسجن، وهي وظيفة إجبارية، كل سجين حتى لو كان مقعدا يجب أن يعمل خمسة أيام بالأسبوع، وتتنوع الأعمال بالسجن حسب حاجة السجن، وقرارات الإدارة، ومعظم العمال لا يعملون فعليا إلا ساعتين ويقضون بقية الوقت يلعبون الورق قبل أن يقرع الجرس إيذانا بانتهاء الدوام الرسمي فيخرجون من أماكن عملهم يتنفسون الصعداء.
وظيفتي الجديدة كانت سهلة ومريحة، بعض السجناء كانوا يحسدونني عليها، كأنني رئيس قسم، أنا الوحيد بهذا القسم لذلك كنت مسؤول نفسي، لا أحد غير المشرف الأول عن العمال يملك حق أن يسألني ماذا تعمل، وعندما كان مشرف العمال يسألني عن العمل أشكو له أنني تعب، وأتذرع بيدي فقد أجريت في كل منهما عملية جراحية قبل سجني بفترة قريبة فيتركني وشأني.

أهم شيء في العمل أن تثبت وجودك في العمل في السابعة صباحا حيث يتفقدون السجناء في كل مكان عمل بالاسم، وأن تكون موجودا في الثانية بعد الظهر عند العدد مرة ثانية، وإلا أغلق السجن وأعلنت حالة الاستنفار.

كانت مهمتي التقاط الأوراق من أطراف السجن في المناطق المحاذية لشبك السجن الحديدي الذي يفصل السجن عن خارجه والذي كان مزروعا بالأعشاب والورود.
مهمة سهلة جدا، أحمل سطلا بلاستيكيا صغيرا وعصا لها رأس مدبب مثل الرمح أضربه على الأرض كي ألتقط الورقة ثم أقذف بها في السطل، ولأن الأوراق نادرة بجانب السور الشبكي، فقد كنت أبحث عن الأوراق المتناثرة هناك، أو أية أعشاب ميتة وأتفنن في التقاطها كأنني في رحلة صيد، وكنت أحيانا مثل الصيادين الهواة فعلا الذين كانوا بعد صيد السمكة يعيدونها للماء، أما أنا فكنت أحيانا ألتقط الورقة ثم أعيدها إلى الأرض كي ألتقطها في اليوم التالي، وخلال هذه المهنة (المتعبة جدا جدا) أستريح أحيانا لأراقب السيارات التي تمر من الشارع المحاذي للسجن وأنظر للبعيد، أحلم بيوم الحرية، أحلم بانتهاء هذا الكابوس، فلم يبق لي هنا غير الحنين إلى المستقبل المجهول، لكنه بالتأكيد سيكون الأجمل، لأنه مستقبل الأولاد، جيل الغد القادم.

في البداية كنت أسرع في العمل فكنت أنتهي بساعة، لكن أحد السجناء قال لي لا تعود بهذه السرعة فقد يجدون لك عملا آخر، لذلك بدأت أتباطأ في العمل، وأحيانا عندما لا أجد شيئا أصطاده، أقتلع بعض الأعشاب وأضعها في السطل لأظهر أمام المسؤول أنني أقوم بعملي على أكمل وجه. خلال تجوالي حول السجن، كنت أمر على مشرف قسم الورود،

وهو سجين مثلي من ألاباما، فأسلم عليه وأسأله عن نوع الورود التي يزرعها، فيشرح لي عنها حتى صرت خبيرا بها، قلت له يوما أن مهنته جميلة، لكن كيف يزرعها أيام الشتاء حيث الجليد والصقيع؟ فرد ضاحكا:
- ألا تعلم أن الورد يموت في الشتاء هنا؟
- يموت؟
- نعم فالتجمد يقتل الورد لذلك عملي هنا يتوقف في الشتاء.
- وماذا تعمل؟
- ينقلوني لقسم آخر حتى يبدأ الربيع.

كنت خلال تجوالي أشاهد أحيانا بعض السجناء يأتون بقرب الأسلاك التي تفصل السجن عن الشارع العام، حيث يكونون على موعد مع قريب أو صديق يمر بسيارته من هناك، فيلقي إليهم بعلب السجاير، ويفرون هاربين قبل أن يلقي القبض عليهم أحد. كانت السجاير قد أصبحت ممنوعة بالسجن، وعلبة السجاير مثل مارلبورو أو نيو بورت تساوي أكثر من خمسة أضعاف سعرها خارج السجن. بعض السجناء كانوا بتاجرون بها، يتحملون المخاطر، ويهربون السجائر ليكونوا ثرواتهم خلف القضبان.
هكذا كان يفعل حسن خارج السجن، فقد كان يهرب السجاير من ولاية نورث كارولينا حيث أسعاره منخفضة لقلة الضرائب المفروضة عليه، إلى ولاية متشغان التي كان سعره فيها أغلى بخمسين بالمئة تقريبا، وعندما ألقي القبض عليه اتهموه أنه يحول الفلوس للإرهابيين في العراق، ولم ينقذه من التهمة إلا اعترافه بكل شيء، وإعادة المبالغ التي جناها من التهريب. وسجن تسع سنوات.

(١٣)

يوم جديد لن تنساه أبدا، سجلتَه في دفتر مذكراتك، بل حفرته في رقائق دماغك، فبقي عالقا به، يصعب محوه، أو تغييره.
في الساعة العاشرة والنصف من العاشر من أيلول، دق جرس الإنذار في السجن، وكان على كل سجين أن يعود لمكان عمله بسرعة، ومن لا عمل له يجب أن يعود إلى غرفته فورا، كان السجناء يتسابقون كيوم الحرب، حيث يتجه كل جندي للقاعدة التي استدعي لها.
يتراكضون لا أحد يعرف لماذا، وما الذي حصل.
شاهدتَ بعض سيارات الشرطة تقتحم السجن ويلتحم أفرادها مع السجانين الذين طوقوا القسم الذي تسكن فيه، وأخرجوا كل من فيه من السجناء العاطلين عن العمل، بعضهم كان يلبس أجهزة واقية من الأسلحة الكيماوية، صعدوا فورا للطابق الثاني، ثم نزلوا وهم يحملون شيئا في صندوق وتوجهوا لخارج السجن، بعد ساعة تم عد السجناء كل في مكانه، ثم فجأة دخل عدة سجانين لمكان العمل الذي تتواجد أنت فيه ونادوا عليك بالاسم ثم كبلوك واقتادوك إلى الزنزانة.
سألتهم ما الأمر؟ فطلبوا منك أن تخرس، كانوا في قمة غضبهم، وعنصريتهم، سمعتهم يقولون:
- هذا إرهابي، لا ندري لماذا أرسلوه هنا؟
في الطريق رأيت سجناء آخرين مقيدين مثلك ويحيط بكل سجين منهم عدة سجانين، فارتحت قليلا فالأمر لا يخصك وحدك إذن.
عندما وصلت قسم الزنازين شاهدت كل السجناء الذين يشغلون معك الغرفة، فسألتهم ما الأمر؟ فأنكروا معرفتهم بما يجري.

أنت الآن بالزنزانة مع إدوارد، وفي الزنازين الأخرى كان بقية نزلاء غرفتك، كل سجينين في زنزانة، حاولت أن تعرف شيئا عن سبب وجودكم جميعا هنا فلم تحصل على إجابة، كنتم تتحدثون من تحت الباب، حيث الفتحة الصغيرة.
قال أحدهم: ربما لأن الغرفة غير نظيفة. فرد آخر ضاحكا، هذا مستبعد، فقال لك إدوارد بصوت منخفض:
- ربما اكتشفوا شيئا ممنوعا في الغرفة؟
- معقول؟ لكن ما علاقتنا بذلك؟ ثم ماذا يمكن أن يجدوا؟
- هاتف خلوي، إصبع حشيش ...
إن لم يعترف أحد عنه سنسجن كلنا بالزنزانة.

ضاع بقية اليوم وأنتم تتحاورون لماذا أنتم هناك.
تعبت من الحديث، واستلقيت على سريرك في الطابق السفلي بينما صعد إدوارد للسرير العلوي، كنتَ قلقا، لماذا أنتَ هناك؟ ما المشكلة؟ كنتَ تشتعل من الداخل، تتمنى لو يأتي أي مسؤول يوجه لك تهمة، يقول لك لماذا أنت في الزنزانة لتدافع عن نفسك، لتطالب بالخروج من هذه الزنزانة، لكن لم يأت أحد إلا سجان يقدم وجبات الأكل في مواعيدها، وسجانان آخران لعد السجناء حسب الجدول المحدد كل يوم.

كانت ليلة تختلف عن بقية الليالي، فالزنزانة لها طعم غريب، لا قلم، لا ورقة، ولا كتاب، ولا يمكنك أن تتصل بأحد، لا يمكنك أن تخرج بعد العشاء لتسير مع زملاء السجن.
ضاعت عنك لحظة غروب الشمس الجميلة هنا التي كانت تنسيك بعض ما أنت فيه، لن تلتقي مع شريف ليغني لك: تحت الشجر يا وهيبة، لن تصطاد ورق الصباح، لن تشاهد السيارات التي تمر من الشارع الموازي لسور السجن. صباحك مثل مسائك، كل الأشياء هنا تتساوى، حتى الليل، والنهار.

بقيتَ محتارا ومتوتر الأعصاب حتى ساعات الصباح، ومن أن غفوت حتى فتح السجان الباب وأخرج إدوارد وبقيت وحدك، ثم سمعت الأقفال تفتح ويخرج من الزنازين بقية نزلاء الغرفة، زادك ذلك توترا، ضربت على الباب بقوة وصرتَ تنادي على السجان، فجاءك سجان تعرفه ويعرفك فقد كنت تشاهده كثيرا يسير في الساحة يتفقد أوضاع السجن، سألته: لماذا أنتَ هناك؟
قال لك: ستعلم بعد قليل فمدير السجن سيلتقي بك.

كنت متشوقا لتلك الساعة، كل ما تريد معرفته لماذا أنتَ هناك؟ ما الذي فعلتَه؟ أي جريمة ارتكبتَها؟ ولماذا أنتَ وحدك من بين كل نزلاء الغرفة من بقي في الزنزانة؟ هل وشى بك أحدهم؟ هل انتقم أحد منك فوضع شيئا ممنوعا في خزانتك ثم أبلغ إدارة السجن؟ وما سر الصندوق الذي أخرجوه من القسم الذي تنزل فيه؟ شيء محير، لكن لماذا توتر أعصابك؟ انتظر لترى، ما الذي يمكن أن يحصل؟

ها أنت أمام مدير السجن، فقد جاءك إلى الزنزانة، ومعه عدة سجانين، سألته على الفور:
- لماذا أنا هنا؟
قال لك بجلافة:

- لقد عثرنا في غرفتك على مادة كيماوية مضرة في كأس كان فوق خزانتك، كانت رائحتها تضر بالسجناء، وحسبناها مادة كيماوية للإضرار بالسجناء، لكن بعد الفحص تبين أنها مخلفات طعام تركت هناك منذ أيام فأصابها العفن وأصبحت تشكل خطرا على حياة السجناء. هذا إهمال وسبب لنا مشكلة وعطل عمل السجانين.
قاطعته:
- وما علاقتي بذلك، أنا لا أترك طعاما بالغرفة.
كان الكأس فوق خزانتك. وعلى كل حال اتخذنا الإجراءات ولن نعاقبك كثيرا.
- إجراءات؟ هكذا ظلما وعدوانا؟
لن يفيدك هذا الصياح، والغضب، لقد صدر قرار بنقلك إلى سجن (ليفنوورث)، في كانزاس، ولنا الحق بنقلك حتى لو لم تقم بأي عمل. سوف نرسلك اليوم بالسيارة المتجهة جنوبا بعد الظهر، لا تقلق فالسجن هناك كامب فدرالي، وعدد نزلائه نصف عددهم هنا.

(١٤)

وصلت سيارة الترحيلات إلى سجن (تيري هات)، حيث كنتَ مع سجناء آخرين نقلوا معك من المحطة السابقة في إلينويس، إنها المحطة الثالثة هنا منذ مغادرتك سجن (دولوث)، وفي كل محطة (سجن) تمكث أسبوعا في الزنزانة بانتظار دورك في الترحيل للمحطة التالية، تنتقل من سجن إلى آخر كأنك في رحلة وسط الأدغال تهرب من وحش كاسر إلى آخر.
سجن (تيري هات) يقع في ولاية إنديانا في مدينة يحمل اسمها، وهو بالنسبة لك المحطة الأخيرة قبل نقلك لسجنك النهائي في سجن (ليفنوورث) في ولاية كانزاس.
هذا السجن ليس مثل كل المحطات السابقة، لا أحد يستطيع مغادرة أسواره، سجانوه يختلفون عن كامب (دولوث)، وحتى سجن (ساند ستون)، أشداء، كأنهم في حالة حرب، جاهزون لأية حركة منك، تعاملهم جاف، أكثر جفافا من صحراء الربع الخالي، يصرخون في كل سجين، حتى أصبح الصراخ عادة يصعب التخلص منها، لا يعرفون الهمس، عيونهم لا تثبت في اتجاه، فهي تتحرك بشكل آلي لتراقب كل شيء في المكان. يتحرشون بأي سجين جديد خاصة العابرين مثلك، كأنهم ينتظرون منه أية ردة فعل لينقضوا عليه ضربا، يكيلون لك النظرات بكل وقاحة، وعندما يصدرون أوامرهم لأي سجين فلم تكن تسمع سوى:
- يس سير (نعم سيدي).
كانت القيود في يديك وفي قدميك، لم يفكوها إلا وأنت على أبواب الزنزانة التي أدخلوك إليها وأغلقوا الباب بقوة حتى اهتز المردوان من صوت طرق الباب، كانت زنزانة فارغة، لا أحد فيها سواك رغم أنها تتسع لاثنين، إذن سترتاح قليلا من صراخ سجين آخر، وأسئلته، وسيكون بإمكانك أن تستخدم الحمام دون أن يشاهدك أحد كما يحصل في الزنازين.
ستشعر ببعض الراحة أن لا أحد هنا يقتحم عليك خلوتك، ستغني كما تشاء، ستحلم كما تشاء، لن يسألك أحد من أين أنت، وكم سنة حكمك، ولماذا أنت هنا، ستكون سيد نفسك رغم كل هذه الأبواب التي تحول بينك وبين الحرية.

آه لو معك كتاب واحد تتسلى به، أو ورقة وقلم لتكتب رسالة، تفقدتَ كل جدران الزنزانة فوجدت عشرات الأسماء على الجدران، لعلهم من مروا من هنا، كنت جائعا، لكن كيف يمكنك طلب وجبة أكل من سجان يصرخ بك بلا سبب، ويبحث عن مبرر ليصب جام غضبه عليك؟

اقتربت من باب الحديد المغلق بالكامل ما عدا شباك صغير في الأعلى، نظرت منه فشاهدت بقية الزنازين في المردوان، صمت مطبق كأن الجميع نيام، فجأة أطل عليك سجين أسود ضخم الجثة من الزنزانة المقابلة، يشبه مايك تايسون بحجمه، سألك قبل أن تبادره بالسؤال:

- أسجين جديد؟
- نعم، وأنت؟

ضحك، وقال أنا هنا للموت.

صدمك قوله، بلعت ريقك، وسألته وهل سينقلونك لسجن جديد؟

- ليتهم يفعلون.
- لا أفهم ماذا تقصد، أليست هذه الزنازين للسجناء المنقولين من سجن لسجن؟
- والمعاقبين داخل السجن.
- فهمت الآن، وما مدة عقابك؟
- ربما أكثر من مدة سجنك.
- أنت تمزح بالتأكيد أنا مسجون سنتان.

ضحك ساخرا وقال:

أنا في هذه الزنزانة منذ ثماني عشرة سنة؟

تغير وجهك، ولسعك كلامه، كأنه أوقظك من حلم جميل، دب الخوف في قلبك، فسألت:

- كل هذه السنوات هنا؟؟ وإلى متى؟
- بقي سبع سنوات لخروجي من الزنزانة.
- خمسة وعشرون سنة سجن؟
- لا إنها فقط مدة السجن الانفرادي لكني محكوم بالمؤبد.

ذهلتَ مما تسمع فسألتَه:

- ولماذا هذه المدة الطويلة؟
- أنا محكوم بالسجن المؤبد، وبعد ثلاث عشرة سنة من السجن اختلفت مع سجان لأنه سخر من الإسلام أمامي ورمى القرآن من يدي على الأرض، فغضبت، وفي وقت لاحق ضربته بسكين عدة طعنات، فمات على الفور لذلك أضافوا لحكمي خمسا وعشرين سنة بالزنزانة، وقد أمضيت منها ثماني عشرة سنة حتى الآن.
- أنت مسلم إذن؟ وأنا أيضا. أنا في الطريق لسجن (ليفنوورث) الكامب.
- أنت في الجنة، لا أدري لماذا أحضروك هنا! هذا سجن لأصحاب الأحكام العالية، وكلهم هنا خطرون، والعنف وسيلتهم للبقاء أحياء. سينقلونك خلال أيام، ستمر بسرعة لا تقلق.

صمت قليلا ثم أكمل حديثه:

- على كل حال أود أن أنبهك أن السجانين هنا يختلفون عن السجون التي كنت بها، هذا سجن أعلى رتبة أمنيا لذلك سجانوه لئام، فلا تعاندهم لأن مدة سجنك بسيطة فقد يلفقون لك تهمة لزيادة حكمك، مثل اعتداء على سجان، أو أنهم وجدوا في حوزتك

سكينا، أو أصبع حشيش، لذلك وبما أنك من نزلاء (فندق) الكامب التزم الصمت، كل سجين هنا يتمنى لو كان مكانك.

بعد أن أنهيت حديثك معه، عدت لسريرك غير مصدق، ثماني عشرة سنة في هذه الزنزانة؟!!

في صباح اليوم التالي أيقظك صوت مفاتيح السجان مبكرا:

- نعيم قطينة.
- نعم سيدي
- قم فورا سيتم ترحيلك اليوم إلى (ليفنوورث).

(١٥)

مثل الخارج من جهنم إلى الجنة، أو مثل الجائع الداخل إلى غرفة مليئة بالطعام، هكذا كنت عندما خرجت من سجن (ليفنوورث) الرسمي المحاذي للكامب. مسافة قصيرة تفصل أسوار السجن الأول عن الساحة الرئيسية للسجن الآخر. لكن الاختلاف كبير بينهما، عندما فتحوا لك باب السجن لتذهب للكامب، لم يكن بيديك القيود، ولا برجليك، لم تصدق نفسك، كنت تشعر كأنه تم الإفراج عنك، خرجت من الباب لتجد سيارة (فان) بانتظارك، سألك السائق عن اسمك وعندما تأكد طلب منك الصعود بجانبه، ها أنت في سيارة فان عادية بدون قيود، تستطيع أن تحرك رجليك كما تشاء، تجلس كما تشاء، تحرك يديك بحرية، تنظر بهذه السهول التي تحيط بك وتفصل بين السجنين، تدقق في السماء البعيدة كالفلاسفة، تراقب العصافير التي تطير بحرية تحسدها عليها، لحظات وتدخل سجنا جديد، هناك ستقضي سنوات سجنك الباقية، بعيدا عن مكان سكنك، كأنك منفي لن يزورك إلا قليل من الأصدقاء.

زادت دهشتك عندما علمت أن السائق سجين مثلك، ينقل السجناء صباحا لمكان عملهم خارج السجن، أو المفرج عنهم لمحطة الباصات وفي المساء يعود برجليه للسجن.
رجل في الخمسين من عمره، ملابسه مختلفه، سلم عليك وقال:
- أنا (شان) السائق.
- أنا نعيم.
- مدة الحكم؟
- سنتان.
- بسيطة، نزهة قصيرة.

هززت رأسك ضاحكا، وتمتمت: قصيرة؟ هي جزء من حياتنا، ضيعناه بدون فائدة.

مدخل السجن في كامب ليفنوورث يختلف عن (دولوث). فالدخول يتم من باب يؤدي إلى غرفة الزيارة، ثم إلى ساحة صغيرة يستخدمها الزوار أحيانا وهي مقابلة لغرف السجناء ثم الباب الرئيسي إلى بناية السجن حيث يقابلك إلى اليمين مكتب صغير يسمى (بَيل) يجلس فيه الحارس المناوب عن المراقبة. يحيط بالمكتب زجاج من ثلاثة اتجاهات، وشاشات مرتبطة بعدة كاميرات مراقبة مع مايكرفون بسماعات في كل السجن ينادي بها السجين المطلوب للإدارة أو العمل، وعليه تلبية النداء وإلا تعرض للعقاب.

ال(بَبِل) يتوسط عمارة السجن فمن اليمين يوجد مردوان يؤدي إلى ساحة السجن الخارجية التي تضم الملاعب. وإلى اليسار مردوان يؤدي لغرفة المكتبة، وقاعة كرة السلة. ومقابل المكتب تماما غرفة الأكل التي تلتصق بالمطبخ.
في السجن يوجد أربعة أقسام في الجهة اليمنى، اثنان في الطابق الأول، ومثلهما في الطابق الثاني تصعد إليهما بالدرج مع غرفة اجتماعات، وبعض الغرف للمسؤولين بالسجن. ومثلهما في الاتجاه الآخر.

استقبلك الحارس المناوب رجل أبيض في الخمسين من عمره قصير القامة، يلبس قميصا أبيض كتب عليه اسمه (ليون هارد)، عرفت لاحقا أنه من أصل ألماني، كان لا يضحك لأحد:
- اسمك؟
- نعيم قطينة.
ذهب إلى الداخل وكأنه يعرف بوصولك، حمل عدة أوراق لديه عن المكتب ثم نادى بالميكروفون.
- (جرمي جرين) احضر إلى (ببل).
بعد ثوان جاء سجين أصلع ممتلىء، متوسط القامة. قال له (ليون هارد) بعد أن سلمه الأوراق:
- ضعه في سرير سفلي فلديه تقرير طبي.

طلب منك جرمي أن تتبعه إلى طابق تحت الأرض، حيث شاهدت سجناء يشاهدون التلفزيون. ثلاثة تلفزيونات في مساحة غرفة صغيرة، كل أربعة سجناء يشاهدون قناة مختلفة، السماعات على آذانهم، ويهزون بأكتافهم للموسيقى. وفي محاذاة تلك الغرفة، غرفة كبيرة للمغسلة، لغسل ملابس السجن والغيارات الرسمية، وليس لغسيل ملابس السجناء، في هذا السجن كل سجين مسؤول عن غسل ملابسه بنفسه، في مغسلة في الطابق الأرضي الأول.

قدم لك جِرمي بعض الملابس لتقيسها ليعرف قياسك الصحيح، ثم قدم لك ملابسك التي يجب أن تخدمك طيلة فترة سجنك، ها أنت توقع على استلامها:
ثلاثة بنطلونات، ثلاثة قمصان، أربعة غيارات داخليه، أربعة جرابين، حذاء قديم، جاكيت شتوي كبير الحجم. وحزام للبنطلونات مصنوع من الخيوط، الغيارات الخارجية عليها اسمك، تمنع من الخروج صباحا من الغرفة بدونها. ثم سلمك مؤونة الشهر، قطعة صابون، لفافتين من ورق الحمام، علبة معجون أسنان صغيرة، وفرشاة أسنان.

حملت كل ذلك في كيس من قماش يشبه المستخدم في الجيش، ولحقت بجرمي السجين الذي أصبح سجانا، إلى الطابق الثاني من الجهة اليمنى للسجن، إنها غرفة رقم اثنان تتسع لاثنين، وسبعين سجينا.

أوصلك إلى سريرك حيث ستبدأ حياتك هناك، وتركك تصارع وحدك العيون المتجهة نحوك، كلهم يدققون في هذا النزيل الجديد المختلف عنهم، أحد السجناء القريب من سريرك سألك السؤال الذي تعودت عليه في كل سجن:
- ما هي المدة التي ستقضيها بيننا؟
- سنتان بقي منها عشرون شهرا.

كنت تدقق في الفرشة الموضوعة على السرير فإذا بها فرشة تالفة ممزقة، لو رأيتها خارج السجن لم تعرها اهتماما، وضعتها فوق السرير فكانت أكبر من السرير نفسه، ها أنت اليوم مجبر على النوم عليها، وضعت أغراضك في الخزانة الحديدية المحاذية للسرير، وسط ضجيج نزلاء الغرفة الذين عددتهم فيما بعد فكانوا ٦٨ نزيلا، مخلطين، بيض وسود ومن أصول مكسيكية.

فجأة دخل الغرفة رجل كبير في السن في الستينات من عمره أصبح فيما بعد صديقك الأول، جلس على طرف سريره المقابل لسريرك. كان يلبس نظارة طبية بيضاء، قال بصوت جهوري.
- لدينا سجين جديد. يبدو أنه من القاعدة. ها ها ها
- القاعدة ثانية؟ قلت لنفسك متسائلا. ثم أكملت: ما هذه البلاوي منذ اللحظة الأولى؟
وجه الرجل العجوز كلامه إليك.
- هل أنت فلسطيني؟
- نعم فلسطيني.
سأل أحد السجناء الرجل العجور:
- كيف عرفت؟
- ماذا تقصد كيف عرفت؟
الفلسطينيون يملأون سانت لويس، ميسوري حيث أعيش. لا يوجد زاوية لا يوجد فيها فلسطيني.
قلت له:
- لكني من منسوتا.
- ليس مهما، لكني أقصد أنني أعرفكم من شكلكم رجال أعمال.
- ما الذي أتى بك إلى هنا؟
- تآمر.

- تآمر!! هذه التهمة المسلطة على رقابنا كلنا.
فقال أحد السجناء مازحا موجه كلامه إليك ومشيرا بإصبعه للرجل العجوز:
- هذا (فرانك)، ستتعود عليه لسانه طويل أطول من عمره. محامي تستطيع استشارته مجانا بما أنه جارك.
فقال له (فرانك):
- أيها القواد لم تبق لي شيئا أقوله له. أكمل لماذا سكت: أعمل في المطبخ نرحب بك هناك.
قلت للمحامي:
- أنت تعمل في المطبخ؟ إنه عمل متعب.
- متعب، انظر إليه بدأ يتباكى، لماذا؟
فقال أحد السجناء:
- لا تصدقه فهو يعمل في مكتب المطبخ مع السجان، يرتب الأوراق ويطبعها. يساعد جورج السجين الآخر. أما المطبخ والتنظيف فهذه ليست مهمته.
فقال له (فرانك):
- أيها الحيوان، هل تنكر أنني أساعد في أشياء أخرى؟
- أحيانا حسب المزاج.
غضب (فرانك)، وقال:
- لا تصدقه هذا كذاب. مذر فكر.

لم تعد تستغرب ألفاظ ذلك المحامي الحادة، فقد تعودت على سماعها من محاميك، ومن كل السجناء. ومن نائب المدعي العام نفسه، هذه لغة السجون.
يومها قال لمحاميك على سمعك:
If he doesn't accept our offer, he will be fucked.

كلمات الشتائم في السجن، وخارج السجن مثل (السلام عليكم) وكلمة (فك) تستسخدم في كل شيء. بدأ من الشتائم (فك يو، مذر فكر) إلى:
- وت ذ فك از ذس. **What the fuck is this**
- أي آم إيتنك ماي فكنك فود. **I am eating my fucking food**
- دنت فك وذ مي. **Don’t fuck with me**
- آي آم ريدنج ما فكنك بيبر. **I am reading my fucking paper**
أحد السجناء الذين شاركوا بالحديث قال للمحامي:
- قل له ما الذي أتى بك هنا أيها المحامي؟
- موكلي واحد من الذين كنت أترافع عنهم ابن العاهرة، مسكوه في قضية تهريب مخدرات وكي يخفف الحكم عنه اعترف أنه كان يدفع لي نقدا وأنني لم أدفع عنها الضرائب.

اقترب منك المحامي وقدم لك فرشاة، ومعجون أسنان قائلا:
- خذ هذه فمعجون السجن طعمه مثل الزفت، وإن احتجت لشيء بلغني.
شعرت بسعادة وأنت تسمع ذلك، سلمت عليه، وشددت على يده.

(١٦)

أحس نعيم بالوحدة في هذا السجن. إنه إحساس قاتل. لم يتعرف على عربي واحد بعد، الناس في هذا السجن بدوا غرباء عنه. وجود أمثال جلال، وشريف، وجوني والآخرين خفف عنه وحدته في سجن (دولوث)، أشعروه أنه ليس وحيدا، ها هو يتمنى لو بقي معهم، لا يهم من هم فقد كان وجودهم يخفف عنه رهبة السجن.
الوضع هنا أقل رهبة فقد أكسبته المدة التي قضاها في السجون التي مر بها تجربة جعلته يعرف كيف يتعامل مع هذا النوع من البشر. عدم التدخل في شؤون الآخرين، عدم الحديث في الممنوعات، عدم نقل الأخبار من شخص إلى آخر. عدم الوشاية عن أي سجين مهما ارتكب من مخالفات. هذا الأسلوب السائد في حياة السجون، يتذكر نعيم جيدا حينما عاد إلى غرفته بعد أيام وفوجئ بالدم على بعض الأسرة، وبعض الملابس المتناثرة، وأحد السجناء ينزف من رأسه، اقترب من أحدهم وسأله:
- ما الذي حدث؟
- لا أعرف.
أحس نعيم بأنه أخطأ بالسؤال، فلا أحد يحب الحديث بهذه الأمور الممنوعة، بعد أي عراك بين اثنين يتفرق الجميع، (لا من شاف ولا من دري). ذهب إلى سريره جلس على حافته فشاهد المحامي عائدا إلى سريره من داخل الغرفة. اقترب منه وسأله: ماذا جرى؟
- لا أعرف، لم أر شيئا. هل تعرف أنت؟
تمتم في سره:
- غريب حتى فرانك لا يريد أن يخبرني. لم يسأل أحدا بعد ذلك عما حصل. استلقى على سريره، وأمسك كتابا وتظاهر في قراءته.
كان السجين المضروب في رأسه يحاول إيقاف النزيف بمساعدة آخرين، وبعض السجناء يحاولون مسح الدم، وتغيير شراشف الأسرة بسرعة، بعد ساعة عندما جاء السجانون للعدد كان كل شيء قد تغير، وضع المجني عليه على رأسه طاقية لإخفاء مكان إصابته.
كل سجين يبلغ السجان يعدونه متعاونا مع السجان ويطلقون عليه بالانجليزية (سنتشر) رغم أنه بحاجة إلى حماية أحيانا، فإما أن ينتقم لاحقا، أو ينسى اصابته، ويكمل حياته كالآخرين.

حاول نعيم كل يوم التعرف على السجن أكثر من خلال قراءة كل الأوراق التي قدموها له أثناء الاجتماع الذي يقيمونه بالعادة مع السجناء الجدد يطلعونهم فيه على قوانين السجن الداخلية، وما هو ممنوع أو مسموح. كونه وحيد ساعده في قضاء معظم وقته في

المطالعة، وما أن قرأ عن إعلان لدورة تعليم الإسبانية حتى سجل بها، كانت المشرفة الثقافيه هي المدرِّسة، وهي من أصل كوبي، كانت قصيرة القامة، مكتنزة، ذات مؤخرة كبيرة كانت مثار نكت السجناء، لكنه بعد شهرين ندم أنه سجل في الدورة، لقد كانت المدرسة تحضر درسا وتغيب آخر. لكن بعد انتهاء الستة شهور سجل في ملفه أنه أنهى دورة ثقافية.
في لقائه مع السيد بول مسؤول القضية أو (الكيس منجر) طلب منه أن يقدم له تقريرا عن كتاب يقرأه كل ثلاثة شهور فوافق على ذلك وبدأ يكتب أول تقرير عن أول كتاب يقرأه، رواية للكاتبة الأمريكية نورا روبرتس.
السجن هنا ليس كبيرا، والتحرك بين غرفه أسهل لكن الغرف الكبيرة مزعجة جدا. قال له (فرانك):
- ليست الغرف المزعجة، بعض السجناء مزعجون، وهم أقلية لكنهم بضجيجهم يجعلون الغرفة لا تطاق.
يتركون الهدفون عاليا فتسمع الأغاني من هنا وهناك، ينامون بساعة متأخرة فيزعجون من حولهم. انظر إليهم جيدا سترى أنهم غير متعلمين، ثقافتهم ضحلة، كسالى لا يحبون أن يعملوا في أي شيء.
هز نعيم رأسه وقد شعر بارتياح لما يسمع.
فقال له:
- لماذا أرى أغلبية المزعجين من السود؟
- لأنهم الأقل حظا بالثقافة، والأكثر كسلا.
- معقول؟
- طبعا.
- ولكن .... صمت ثم تجرأ وقال:
- لكن البيض أكثر عنصرية.
- صحيح، لكن هذه مسألة أخرى لا علاقة لها بالإزعاج.
على كل حال إن كنت تحب الهدوء لماذا لا تسجل للغرف الصغيرة؟!
- تقصد في قسم ب١، سي١.
- تماما هناك كل غرفة فيها سجينان.
- ماذا لو كان حظي مع مزعج؟!
- سيكون مزعجا واحدا وليس عشرين. ها ها ها.
- أنا سجلت هناك منذ ٣ شهور.
- أوف. ولماذا لم ينقلوك؟
- لأنني لست الوحيد الذي يريد الانتقال إلى تلك الغرف، هناك سجل شامل، حسب الدور. ربما يأتي دوري بعد ٣ شهور.
- وكيف أسجل يا ترى؟

- اذهب إلى الكونسلر وسجل عنده بعد أن تقدم له طلبا بذلك.
- حسنا غدا سأفعل.

(١٧)

في المصائب تكثر الذكريات، فعندما يقعدك المرض، أو يحد من حريتك السجن، أو تمنعك الشيخوخة من القيام بأعمالك الروتينية اليومية، تستسلم رغما عنك لشريط الذكريات الذي يقفز للجبهة الأمامية ليطل عليك كل يوم، وبدون إنذار.

وعندما تكون في السجن مستلقيا على فراشك بعد ساعات العمل، تختلط عليك الذكريات وتهاجمك من كل صوب، فتحتار أيها تختار، وتتمنى ألا ينغص لحظات وحدتك أحد من السجناء، أو السجانين.
مثل هذه الساعة كل يوم قبل النوم بفترة كان نعيم يستلقي على سريره، وأصوات السجناء وصراخهم تصم أذنيه.

من أين يبدأ نعيم، والذكريات كثيرة؟

قبل عامين خرج من البيت باتجاه المحل، بعد قطع مسافة قصيرة لاحظ سيارة حمراء نوع فورد تتبعه، استغرب ذلك، وأراد قطع الشك باليقين، فانحرف من الطريق السريع إلى شارع سنشري، فلحقته السيارة، وظلت تسير خلفه من شارع إلى شارع، وعندما وصل شارع ماريلاند انحرف يسارا باتجاه الشرق ونظر في المرآة فلاحظ أنها ما زالت تسير خلفه، خشي أن تكون سيارة لصوص تلاحقه، فكر الاتصال بالشرطة لكنه تراجع فقد تكون خلفه بالصدفة، لذلك انحرف إلى بحيرة (فولن) عندما اقترب منها، أوقف السيارة، دون إطفاء المحرك، وبدأ يراقب من مرآة السيارة تلك السيارة الحمراء، بعد أن أحكم إغلاق كافة الأبواب.
فجأة وقفت السيارة أمامه وخرج منها أربعة رجال بملابس مدنية مشهرين سلاحهم نحوه، صارخين بأعلى صوتهم.
- إف بي آي لا تتحرك.
- إف بي آي! اخرج يديك من نافذة السيارة؟
رفع يديه من الشباك.
اقتربوا منه بحذر، وعندما وصلوه، طلبوا منه فتح السيارة بيد واحدة مع بقاء اليد الأخرى مرفوعة بالهواء، وما أن فتح الأبواب حتى انقضوا عليه من كل الجهات يقيدونه، ثم يطلبون منه التحرك إلى سيارتهم.
- وسيارتي؟

- اتركها هنا
- قد يسرقونها؟!
- هل هذا ما يشغلك الآن؟
- ولماذا لا يشغلني؟ سيارتي.
أقفلوا السيارة باحكام، وأخذوا المفاتيح وانطلقوا به مقيدا بعد أن أجلسوه في السيارة في المقعد الخلفي.
كان مقيدا من الخلف، بحيث يصعب عليه الحركة وبجانبه رجلان من رجال إف بي آي.
سألهم نعيم:
- لماذا اعتقلتموني؟
- ستعرف لاحقا.
قال أحدهم للآخر:
- اقرأ له حقوقه. فقال الآخر:
- من حقك التزام الصمت. كل كلمة تقولها قد تستخدم ضدك في المحكمة.
سكت ولم يسأل، فقد عرف أنهم لن يتركوه بحاله، يريدون، الانتقام منه بأية طريقة، لقد حذره المحامي، لكن ماذا بإمكانه أن يفعل؟ لا شيء لم يرتكب جريمة، بدأ يراجع دفتر حساباته القديمة، ماذا تراهم اكتشفوا؟

فجأة رن جرس الهاتف في جيبه، سألهم، هل أستطيع الرد؟
فقال له الجالس في المقعد الأمامي:
- لا تستطيع الرد على أية مكالمة.
مد الجالس بجانبه يده إلى جيب نعيم فسحب الهاتف الخلوي وأغلقه ثم وضعه في جيبه.
فسأله نعيم:
- لماذا أخذت الهاتف؟
- وهل سنتركه لك بالسجن؟
- هل أنا ذاهب إلى السجن؟
- سنرى فيما بعد.
هز نعيم رأسه ولم يرد.
وصلت السيارة إلى مقر الإف بي آي في وسط مدينة منيابولس. إنها العمارة التي يعرفها جيدا تقع على تقاطع شارع أربعة مع طريق رقم ثلاثة، لقد جاء إليها عدة مرات. نزلت السيارة إلى أسفل العمارة وهناك اقتادوه إلى المصعد ثم صعدوا به إلى الطابق الرابع، وبعد أن أدخلوه، فتشوه، وجردوه من كل ما يحمله في جيوبه ثم أدخلوه إلى غرفة وحيدا وأجلسوه هناك على الأرض. وأغلقوا الباب عليه.
جلس على الأرض لا يعرف بماذا يفكر؟

لا أحد يعرف أنني هنا. سيتصلون بي في المحل. فهم بانتظاري، سيتصلون الآن مع حنان يسألونها، ستقول لهم أنني خرجت من البيت، ستحاول الاتصال بي لكن الهاتف مغلق.
ستنشغل الآن، ستكون قلقة. سيتصلون بحمدان لعلني عنده، حتى حمدان سيقلق.
آخ ليتني أعرف لماذا أنا هنا؟ ما الذي يريده هؤلاء الأوغاد؟ هؤلاء فعلا أوغاد، لا يتركون الشخص بحاله حتى يجهزون عليه. لا بد أنهم هذه المرة يعدون لقضية كبيرة، سأضطر إلى توكيل محام جديد، ودفع أتعاب جديدة..... و و.
لن أستريح منهم، زاروني من قبل يسألونني عن رأيي السياسي بالإرهاب، وبحماس، وبالسلام. لم تعجبهم ردودي، حذروني من مشاركاتي بالمسيرات الحقوقية التي أشارك فيها في المدينة، رغم أنها قانونية.

بعد ساعات، جاء إلى نعيم رجلان يلبسان ملابس مرتبة، يبدو أنهما من المحققين، نقلاه إلى غرفة أخرى كبلاه من جديد، وجد نفسه في غرفة محكمة كبيرة،
دخلها فإذا به في قاعة محكمة، فكوا قيده وأجلسوه في الجهة المقابلة.

كانت القاعة تعج برجال الإف بي آي، والمدعي العام والحراس، وموظفون آخرون لا يعرف حمدان صفتهم، كانوا جميعا يتشاورون، ويتهامسون كأنهم يتآمرون عليه**!!** يتآمرون؟ طبعا، لم لا؟**!** إنهم يرتبون أقوالهم يحاولون إحكام القيد عليه. هل يعرف أحد من الأهل أنه هنا؟

تساؤلاته لم تستمر، فقد فوجيء بزوجته وحمدان يدخلان قاعة المحكمة، ومعهما المحامي (شيا). انشرح قلبه، وابتسم.
تقدم المحامي نحوه، سلم عليه وقال له:
- لا تقلق، هناك اتهام سيوجه ضدك الآن وستخرج بالكفالة، لن ترد على أي سؤال، سيتم تحديد جلسات المحكمة لاحقا، ستزورني في مكتبي وسأشرح لك كل شيء.
- اتهام بماذا؟
اتهام بالتآمر.
- تآمر**!** تآمر ضد من؟
- تآمر ضد حكومة الولايات المتحدة، لأنك لم تدفع الضريبة، واتهامات أخرى كثيرة ليس هذا وقت شرحها.
- ولكن....
- لا داعي للنقاش الآن هذا ليس وقته، المهم الآن سيوجهون لك التهمة أمام القاضي كل ما عليك قوله: (غير مذنب)، ثم سيقرر القاضي الإفراج عنك بالكفالة المالية بتوقيعك

الشخصي، سيقرأ القاضي عليك بعض الشروط التي عليك الموافقة عليها، سأكون بجانبك، بعد ذلك سنجتمع ونتناقش. المهم الآن أن تخرج.

الحاجب يقف معلنا دخول القاضي.
يقف الجميع، بعد دخول القاضي الذي يبدو كبيرا بالسن أصلع الرأس يطلب من الجميع الجلوس.
يقف نعيم بجانب المحامي في جهة وفي الجهة القريبة المقابلة يقف المدعي العام، يبدأ القاضي حديثه إليك:
- هل أنت نعيم قطينة؟
- نعم.
- تاريخ ميلادك.....
- نعم.
- أنت متهم بالتآمر ضد حكومة الولايات المتحدة.....
- غير مذنب.
ينظر القاضي نحو المدعي العام ويسأله:
- هل تعترضون على الإفراج عنه بالكفالة؟
- لا اعتراض سيدي القاضي.
- حسنا نأمر بالإفراج عنه بكفالة مقدارها خمسة وعشرون ألف دولار بتوقيعه الشخصي. مع ضرورة تسليمه جواز سفره، وعدم سفره خارج الولاية بدون إذن.....

(١٨)

زوجتي العزيزة، أسعد الله صباحك، ومساءك،
كم أنا سعيد أنني أكتب لك هذه الرسالة قبل أن يسمح لي بالاتصال هاتفيا بكم، فما زلت أنتظر أن يوضع اسمي على لائحة المسموح لهم الاتصال، فمنذ تلك الحادثة المشؤومة في سجن (دولوث) والتي نقلت بسببها من هناك لم وأنا ممنوع من الاتصال الهاتفي، لذلك أنا في شوق شديد لكم، لا أنام إلا بعد أن يفتك بي التعب، قلق عليكم، وهذه الرسالة لم يكن بإمكاني أن أرسلها لولا صديقي السجين (فرانك) الذي قدم لي الورقة، والمغلف، وطابع البريد، فلم يكن عندي أي شيء، فالفلوس التي في حسابي في سجن (دولوث)، لن تتحول إلى هنا إلا بعد فترة.
طمئنيني عنك، وعن الأولاد؟ بلغي صابر، وهيام أنني سأعود، وأنني أحبهما.
لن ينجح السجن في قطع تواصلنا معا.
أعلم أنكم جميعا في شوق لي، وتنتظرون معرفة أين أنا اليوم، شهر كامل من الانقطاع لعلكم قلقون لأنكم لا تعرفون أي سجن تم ترحيلي إليه.
هذه أول رسالة أرسلها لك من سجن (ليفنوورث)، فقد وصلت بنا سيارة الترحيلات قبل أسبوع تقريبا، بعد رحلة عذاب مررت خلالها بثلاثة سجون قبل وصولي هنا.
الوضع هنا لا يختلف كثيرا عن سجن (دولوث) حيث القيود على السجناء خفيفة، نمكث طوال اليوم خارج الغرف التي لا أبواب لها، لكن السجن هنا أصغر من السابق، تعرفت على عربي من الأردن هنا اسمه محمد، لكنه لا يختلط بأحد، يعرف على نفسه باسم مايك، عرفت من سجناء آخرين أنه وشى بزملاء عرب مقابل التخفيف من مدة سجنه لذلك يخشى أن يتعرف عليه أي سجين عربي خوفا من الاعتداء عليه. وتعرفت على لبناني بعد أيام اسمه توني رجل كبير بالسن تجاوز الستين عاما، لكنه قليل الكلام وشبه منعزل، فقد مر على سجنه ستة عشر عاما وبقي له عام واحد للتحرر، رجل طيب لكنه يتواجد معظم وقته في الغرفة ربما لطول مدة سجنه.

يوم أمس استلمت عملي الجديد هنا، وهو عمل يعدونه مميزا، فنحن نعمل في مصنع إن شئت أن تسميه، أو ورشة نقوم بها بتفكيك أجهزة الحاسوب القديمة، والتالفة حيث نفرز كل نوع لوحده، مثلا البلاستيك وحدها، الأسلاك وحدها، الشرائح وحدها إلى آخره. ثم نجمع كل شيء في صناديق كبيرة يتم إغلاقها بإحكام للشحن، عرفت أنهم يبيعونها للصين، يعني يبيعون نتاج عملنا، أما أجورنا هنا فهي تبدأ من ٢٨ سنتا بالساعة يعني أقل من الحد الأدنى للأجور خارج السجن بثلاثين مرة تقريبا. فلا قوانين تطبق هنا سوى قوانين السجن.

وقد يصل أجرة بعضنا حوالي الستين دولارا شهريا، وهذا المبلغ الزهيد كما ترين لو تعرفين هنا كبير جدا، في حين يتقاضى العاملون في أقسام النظافة مثلا ستة دولارات بالشهر لا تكفي لشراء علبة قهوة. إنهم يقولون لنا: (إنكم لم تحافظوا على نعمة الحرية فذوقوا نتيجة أعمالكم). ولأنني حديث العهد بالعمل فمهمتي هي تقطيع الأسلاك، حيث علينا إحضار الأسلاك وتقطيع أطرافها وفرزها، وفرز الشرائح عن بعضها ومعي في هذا القسم حوالي عشرة عمال نجلس بجانب بعضنا بعضا. لكل منا صندوق من الأدوات التي يجب أن نحافظ عليها من الضياع وإلا تعرضنا للعقاب، كل عامل هنا عندما يدخل القسم صباحا عليه أولا الانتظار حتى موعد العدد حوالي السابعة والنصف صباحا. بعد ذلك نتوجه لغرفة استلام عدة العمل، وهي تختلف من شخص لآخر حسب القسم، ومسجلة باسمه، فيقدم كل منا بطاقته لتوضع في مسمار خاص مكان صندوق العدة الذي نستلمه، ويضم عادة قطاعة، بعض المفكات، وعند الغذاء نعيدها ونعيد استلامها بعد الغذاء ثم نسلمها عند انتهاء العمل، كل من يفقد عدته يعاقب بالزنزانة خوفا من استخدام المواد المفقودة في عملية شجار، أو ضرب بين متهم وآخر، وهو نادرة الحدوث في مثل هذه الأنواع من السجون.

العمل هنا روتيني أعود فيه للغرفة متعبا، ولا أشعر بالفائدة منه، لذلك طلبت من المسؤول نقلي من هذه الورشة وطلبت من صديقي الجديد المحامي فرانك الذي تعرفت عليه هنا أن ينقلني للمطبخ، ليس بصفته محام، فهو سجين مثلنا، بل لأنه يعمل في غرفة مسؤول المطبخ ويمكنه التوسط بذلك، فالعمل الفعلي هناك لا يزيد عن ساعتين أستطيع أن أقضي بقية الوقت في المطالعة أو الرياضة.

وحتى يتم النقل فها أنا أقوم بعملي هنا خمسة أيام في الأسبوع مثل كل العمال في الولايات المتحدة.
العمل هنا مزعج فصوت الموسيقى يصم الآذان، وهي موسيقى الراب التعيسة، فالسجناء السود هنا لا يحبون العمل دون الاستماع للموسيقى ويحبونها عالية الصوت، ويتمايلون وهم يعملون، في أحد الأيام قرر مشرف العمل إلغاء الموسيقى فثاروا عليه وضجوا، وهددوا بالتوقف عن العمل، هكذا كان وبعد يومين أعاد المشرف الموسيقى تفاديا لصدامات لا يريدها.

أهم مجموعة في الورشة هنا هي فئة التقنيين، حيث يقومون بفحص أجهزة اللاب توب القديمة لفصل الشرائح الجيدة من التالفة (المذر بورد)، من كانت بحالة جيدة ويمكن إعادة استخدامها يضعونها في صناديق خاصة لبيعها لشركات تشتريها بالجملة.
لكن السجناء أيضا كانوا يستغلون ذلك فيهربون بعضها عبر طرقهم الخاصة لبيعها خارج السجن. عندما تكون سجينا يصبح التهريب يسري في دمك، والابتكار سيد الموقف.

(١٩)

بعد شهر جاءك الخبر السعيد، الخبر الذي جاهدت طويلا لتحقيقه في هذا السجن، صديقك الجديد المحامي فرانك نجح في إقناع السجان المسؤول على نقلك من المصنع، إلى المطبخ، يا له من إنجاز كبير، كنتَ بينك وبين نفسك تضحك على هذا الإنجاز، فالعمل في المطبخ لساعات أقل يمنحك مزيدا من الوقت للاستفادة من وقت السجن كي لا يتحول لوقت ضائع، فها هي الأيام تمر كأنها سنوات، أنت منذ اليوم ستعمل في قسم المطبخ، سيكون لديك مهمتان الأولى تحضير الأكل الخاص للكوشر، وهو لليهود السجناء، وبعض المسلمين الذين لا يريدون الأكل المطبوخ بالسجن لأنه يطبخ بأواني استخدمت في طهي الخنزير يوما ما، لذلك كل مأكولاتهم تأتي معلبة مثل الخبز، الجبن، علب الحليب، السيريال إلى آخره، عدد السجناء الذين يتقاضون هذه الوجبات تسعة منهم يهودي واحد فقط، لا يستغرق إعدادها أكثر من نصف ساعة، ولذلك طلب منك السجان أن تساعد مشرف قسم الخضار في تحضير وتجهيز الخضار والفواكه للسجناء.
إذن ثلاثة مشرفين سجناء في قسم المطبخ، المشرف الأول المسؤل عن إعداد الأكل والطبخ، وكان أمريكيا أبيض عنصري، رغم أنه خليط من سكان أمريكا الأصليين، والبيض، لديه ثلاثة مساعدين، والثاني مسؤول قسم الخضار كان مكسيكيا لا أحد يعمل معه وهو المشرف عن تحضير السلطات، وتجهيز الخضار للمشرف الأول، والثالث هو أنت رغم صغر مهنتك وتفاهتها لكنها جعلت منك مسؤولا عن هذا القسم، وكلكم تعملون تحت إشراف السجان الطباخ الذي لا تتعدى مهمته فتح الثلاجات المغلقة بالأقفال لكم لتأخذوا منها ما تريدون، ثم يغلقها ويعود لمكتبه ينتظر وجبات أكله الخاصة منكم. كان هناك مشرف رابع لكنه يأتي متأخرا ويعمل بشكل مستقل عنكم، وهو المشرف عن تنظيف أواني الأكل، وقاعة الأكل، فهذا شخص لا علاقة له بالمطبخ إلا بالاسم. أما وجبة العشاء فقد كان يشرف عليها طاقم آخر بإشراف طباخ أسود مسلم معروف بين السجناء باسم علي.

أيام قليلة فقط مرت على عملك الجديد لتجد أن كل العاملين في المطبخ من اللصوص، كنت الوحيد الذي حاول أن يظل بعيدا عما يجري، لكنك اكتشفت فيما بعد أنك في غابة رغما عنك، وعليك أن تدافع عن نفسك وتكون أسدا كي لا يفترسك الأسود.
أن تكون عاملا في مطبخ السجن يعني أن تصبح مهربا، تعمل في تجارة التهريب، فالسجناء يريدونك أن تهرب لهم أكلا إضافيا خارج القاعة مقابل الفلوس التي يتم تداولها بالسجن، الطوابع البريدية هي الفلوس التي يتم التعامل معها، وهناك لائحة أسعار متعارف عليها، خصوصا على المواد الأكثر طلبا: حبة البندورة بطابعين، رأس بصل كبير

بطابعين، فلفل أخضر كل حبة بطابعين، كل ثلاثين بيضة بعشرين طابعا، لحمة، دجاج، إلى آخره.، وإن لم تهرب هذه المواد تجد من يشي بك للإدارة كي يفصلوك من عملك لأن عملك هناك دون تهريب يعطل عمل السجناء، ومصالحهم، هكذا إذن هي دورة متكاملة يشارك بها الجميع. السجان الطباخ هنا لا يهمه إن سرقت أم لم تسرق، المهم ألا يضبطك تسرق، أو يشي بك أحدهم، أويلقي القبض عليك سجان آخر وأنت تحمل بعض المأكولات المهربة فهذا يظهره أنه لا يقوم بواجبه بالمراقبة، كل هم السجان الرئيسية كان ألا يواجه أية متاعب بسبب من يعلمون معه.

بعد شهر كنت أشهر المهربين في المطبخ، وحديث السجن، فاحتج عليك الطباخون، بأنك تسرق كل شيء وتهربه، وطالبوك أن تختص فقط بتهريب المواد التي تشرف أنت عليها أو تعمل بها مثل الخضار والفواكه، والبصل، وألا تتدخل في اللحوم والبيض، لكنك قاومت كثيرا طلبهم، ورضخت لهم كي لا تثير معهم المشاكل، ورغم هذا لم تلتزم بالاتفاق، وكل ما احتجوا عليك كنت تزيد من بعض الخضار الذي تعطيه لكل واحد منهم ليبيعها لزبائنه ليسكت ويكف لسانه عنك، يا لها من غابة أسرتك فصرت أحد أسودها الكبار، كنتَ تبرر عمليات التهريب التي تقوم بها بأنهم سجنوك ظلما، وأن الحكومة تعلن الحروب على الشعوب الأخرى لذلك فسرقتها حلال، كنت تتفنن في التهريب، حتى أنك أقنعت المشرف عن الخضار المكسيسكي (أميغو فرناندو) أن تضاعف من تهريب البصل الذي كان مطلوبا بكثرة لاستخدامه في السلطات المصنعة داخل السجن، وفي إعداد الأكل والبيتزا، اتفقت معه بدل أن تهرب عدة بصلات أن تهربوا كيس البصل كله الذي يزن حوالي خمسن كيلو غراما!!!

كان في السجن طباخ سجان مسؤول يعمل خمسة أيام وفي يومي عطلته أو إجازاته كان يأتي سجان جديد من السجن المجاور، وكان أحدهم نحيفا طويلا يبدو أنه كان يكره عمله، ويكره إدارة السجون فكان يأتي في الرابعة والنصف صباحا تقريبا فيفتح لكم الثلاجات كلها مرة واحدة ويذهب لمكتبه ويقول لكم عندما تنتهوا من أخذ ما تريدون بلغوني كي أحضر لإغلاقها، كنتم تحبون هذا السجان، وتتمنون أن يحضر كل يوم، كان تصرفه غريبا فهو السجان الوحيد الذي كان يترككم تسرقون ما تشاؤون وهو يعرف ذلك تماما، كنت تعمل وحدك مثل خلية نحل فتخرج أضعاف ما هو مطلوب وتطلب من فرناندو الذي كان دوامه متأخرا أن ينتظرك خلف المطبخ لتهرب له أكياس البصل ليقوم هو بتهريبها لغرفته، ثم يتولى بيعها. هذا اليوم يكون يوما عن أسبوع، وأحيانا عن شهر كامل.

أصبح لديك الكثير من الزبائن، كان أفضلهم سجين أبيض في مثل عمرك يقوم كل يوم بتحضير أكله خارج أكل السجن لأن معظمه غير جيد، وكان يشترك في ذلك مع بعض السجناء، هذا الزبون كان يصل ما يشتريه منك شهريا أكثر من ألف طابع، أصبحتَ تاجرا

محترفا، تعلمت كيف تكون حوتا يفترس كل من حوله، فقد كنت قبل ذلك مثل دولفين وديع فاصطادك الجميع.
سجين واحد لم تكن تأخذ منه أي طابع، كان صديقك المفضل، وسندك أمام حيتان المطبخ الآخرين بعد أن تحرر المحامي فرانك من السجن، إنه (جو). احتفل بعيد ميلاده الثمانين وهو في السجن، كبر سنه لم يساعده ولم يخفف عنه الحكم، فقد حكم عشر سنوات وها قد أمضى معظمها، كان خارج السجن يعمل في تجارة الأبقار، والأغنام، وقد اقترض من البنك مليوني دولار لهذه المهمة، فقد كانت البنوك تشجع هذه الصناعة لتوفير الثروة الحيوانية للسكان، وكان يقوم بعمله على أكمل وجه ويدفع الدفعات الشهرية حسب الاتفاق مع البنوك، ودون تأخير، لكن اكتشف المحققون أنه يستخدم الأموال في تجارة أخرى غير تجارة الماشية، وهو ما يعني الإخلال بالاتفاق المبرم مع البنك رغم أن تجارته الأخرى شرعية، ولا يتأخر عن دفع الدفعات الشهرية للبنك، لكن المحققين لا يفهمون هذه اللغة، فتم سجنه، وتم حساب عدد المرات التي استخدمها في التجارة الأخرى فكانت حوالي سبعين مليون دولار فحاكموه على أنه نصب على البنك بسبعين مليون دولار مع أن قيمة الدين كانت مليوني دولار، وسُجن عشر سنوات.

كان يعمل في المطبخ في مكتب السجان الطباخ يطبع له الأوراق بعد أن أفرج عن المحامي فرانك، ويحضر له الطلبيات، كنت تقدم له ما يريد من أكل دون أي طابع، وكنت عندما تطبخ أكلك الخاص تحسب حسابه وتقدم له صحنه فيشكرك.

رغم حذرك ورغم ذكائك، لكنك لم تسلم من الوقوع في يد السجان، نعم كنت مهربا بارعا، وكانت جسورا، ومجازفا، لكن لأنك كنت تعمل وحدك فقد وقعت في الفخ أكثر مرة. مهما كان حذرك فالصياد يتربص بك، والسجان يعمل وفق مزاجه الخاص أحيانا، وعندما تراه يضحك في وجهك فقد يكون يضمر لك الشر دون أن تدري، وعندما تراه يتظاهر أنه لا يراقبك أو يراك فقد يتركك على راحتك تهرب ما تشاء ثم تجده فجأة أمامك يسألك عما في جيوبك.
في أحد الأيام كنتَ تلبس المعطف الشتوي الذي لم يكن لديك غيره، هذا ما منحوه لك عندما شرفت لهذا السجن، معطف شتوي كبير أكبر من حجمك حاولت أن تغيره فلم يكن لديهم غيره آنذاك، وقالوا لك يمكنك تغييره لاحقا، لم تكن تعلم أن هذا المعطف سيفيدك كثيرا، وأنك لن تغيره أبدا فقد كنت تهرب فيه كل بضاعتك من المطبخ. كنت تضعها في كم المعطف من الأعلى وتترك الجيوب فارغة كي لا تثير الشبهة.
في ذلك اليوم كانت جيوبك كلها ملآنة، انتظرت الساعة التاسعة صباحا حيث جميع السجناء في أعمالهم وخرجت من المطبخ باتجاه غرفتك، وما أن خرجت من المطبخ حتى فاجأك السجان (أِلكس) هذا السجان الشاب، صاحب العضلات الذي كان يأتي بين الحين والآخر ليعمل بدل السجانين المجازين، أوقفك دون سبب وسألك:

ماذا تخبئ في المعطف؟
لم تتردد في الإجابة، ولم تتأتئ في الحديث، ولم تغير لون وجهك، كان جوابك سريعا وحازما.
- أحمل بندورة، وفلفل، وبصل لأعمل صحن سلطة.
نظر إليك لعله أعجب بصراحتك، وسرعة إجابتك وثقتك بنفسك كأنك تقوم بعمل مسموح به، ثم قال:
- حسنا أخرج ما في جيوبك.
أخرجتها واحدة تلو الأخرى، فطلب منك التوقف ثم هز لك برأسه مبتسما وغمز بعنيه أن تابع سيرك، تنفست الصعداء، كأن هما أزيح عن كاهلك، فقد كنت تخشى أن يعاقبك فيرسلك للزنزانة أو على الأقل يبلغ عنك فتصدر ضدك عقوبات أخرى.

منذ ذلك اليوم بت تحسب حساب هذا السجان، فقد أصبحتَ مشبوها عنده، لذلك كلما كانت ورديته كنت حريصا ألا تخرج من المطبخ للغرفة إلا إن كان في النصف الثاني من القسم حيث لا يراك فالمسافة من باب المطبخ لغرفتك لم تكن بعيدة.

في المرة الثانية كنتَ تحمل علب حلوى لذيذة كنت تبيعها كل صندوق بعشرة طوابع، فقد حصلتَ عليها من المخزن عن طريق سجين كان يعمل في مخزن السجن كان يخفيها لك في صناديق الخضار، مقابل أن تقدم له بعض الدجاج، واللحمة في عطلة الأسبوع. كان (أَلِكس) نفسه هو السجان المناوب، فراقبته حتى رأيته في مكتبه فخرجت من الباب الخلفي للمطبخ، وعندما دخلت عمارة السجن من الباب الخلفي، اللعنة، ها هو أمامك مرة أخرى، يا للصدفة فكل حذرك وانتباهك لم يسعفك، أوقفك فورا، وكرر عليك السؤال:
- ماذا معك هذه المرة؟
قلت له:
- حلويات ستارباك. وأريته إياها، فنظر إليها وقد أعجب بها وقال:
- من أين لك هذا؟ أنت لا توفر شيئا!!
ضحكت وقلت له:
- خذ هذا الصندوق لك.
فهز رأسه رافضا الرشوة، فقلت له غير خائف:
- هل أحضر لك صحنا لتجربه؟
لم يقل لا، لكنه تركك تذهب، ذهبت على الفور إلى غرفتك لتخفي ما في جيوبك، وأحضرت صحنا من المطبخ فأنت تعمل بالمطبخ ولا أحد يمنعك عن ذلك، ووضعت عدة قطع من الحلوى وذهبت للسجان ووضعتها أمامه في مكتبه مع شوكة، فشكرك عليها، ومنذ ذلك الحين أصبحتَ لا تخشى تفتيشه لك لكن كنت حريصا ألا يضبطك مرة ثالثة.

(٢٠)

اليوم كان مميزا إليك، وأدخل السعادة إلى قلبك، فقد أتاك ضيوف، داهموك بغير موعد، ضيفان لم تعرفهما، ولم تسمع بهما من قبل، ولعلك لو شاهدتهما خارج السجن لن تنتبه لهما، ولن يكون لديك وقت لاستضافتهما، أما هنا فالأمر يختلف، الصداقة لها مذاق مختلف، كنت تتمنى أن يأتيك ضيوف جدد، مع أنك تعلم أنهم لا يأتوك إلا سجناء تاركين خلفهم أولادهم، وزوجاتهم ليقضوا معك بعض سنوات عمرهم، هنا تطبق قول المتنبي:
مصائب قوم عند قوم فوائد

سجينان جديدان وصلا ليفنوورث كامب، هكذا وصلك الخبر من بعض السجناء، قال لك أحدهم:

- نعيم جاءك أتباع.
- أتباع؟
- نعم عربيان
- صحيح؟ وأين هما؟
- وضعوهما في غرفة أربعة أحدهم يسير بعكاز

غادرتَ غرفة التلفاز، وذهبت تبحث عنهما، وعندما التقيت بهما، كأنك تعرفهما منذ أعوام مع أنك لم ترهما من قبل، عانقتهما ورحبت بهما!! وعرفتهما على نفسك، وعرفت منهما أن أحدهما واسمه فارس سوري من سكان شيكاغو محكوم ثماني سنوات لأنه كان يقدم معلومات غير صحيحة في طلبات القروض من البنوك لزبائنه، والثاني لبناني اسمه عصام، من سكان ديربورن في متشغان، كل يوم له حكاية فلم تعد تعرف لماذا هو بالسجن.
دعوتهما للساحة لتعرفهما على السجن، وقوانينه، فكل قادم جديد يكون في البداية متوتر الأعصاب، ويشكل السجن عنده رهبة تزول مع الأيام، بعد أن يعرف أن ليس كل نزلاء السجن رجال عصابات، وقتلة.

كنت سعيدا بوصولهما فقد صار لك الآن زملاء في السجن، تقضي معهما بعض وقتك، كان مسلمين، ومع وجود خمسة من المسلمين السود فقد صار عدد المصلين ثمانية، فمحمد (مايك) لم يكن يأتي للصلاة، ولا يشارك في أي لقاء.

كان فارس متوتر الأعصاب، لم يكن يتوقع أن يحكم عليه بالسجن، عرض عليه المدعي العام صفقة يتم بموجبها سجنه عامين مقابل أن يقر بالتهم الموجهة له، ونصحه المحامي أن يقبل العرض لكنه رفض وأصر على المحاكمة، فأدانته هيئة المحلفين، وحكم عليه القاضي بالسجن ثماني سنوات، فقد عقله، وتغيرت أحواله، حاولتَ أن تخفف عنه مصابه، لكنه كان خائفا من كل سجين، وسجان، فعاش قلقا طوال الوقت.

وزاد قلقه الحرب في سوريا فأهله من حمص، خسروا بيتهم الذي ورثوه عن والده الذي أفنى عمره يعمل كي يبنيه لهم، أخوه استشهد مع الجيش السوري، وابن عمه التحق مع قوات المعارضة، كان دائما يتشاجر مع عصام اللبناني، فارس يؤيد النظام السوري، أما عصام فيدعم المعارضين، يكره الأسد، ويكره حزب الله ويتهمهما بمقتل رفيق الحريري.

لذلك كنتَ من النادر أن تسير معهما معا في الساحة، فإما أن تكون مع فارس أو مع عصام.

عندما تسير مع عصام تضحك طوال الوقت، فهو يوهمك أنه كان بطلا لا يشق له غبار، وأن الرئيس الحريري عندما كان يأتي للولايات المتحدة كان يتصل به ليكون حارسه الخاص.

وفي المرة التي تليها تحدث عن ذكرياته في لبنان أثناء الحرب الأهلية، وادعى أنه هو الذي قام بتهريب ياسر عرفات من جنوب لبنان للشمال، ولولاه لقتل عرفات منذ ذلك التاريخ!!

وفي الصلاة كان ينظر إلينا فيقوم بنفس الحركات، لا يحفظ ولو آية واحدة ولا يعرف كيف يصلي، واستغل خلافه مع المسلم الأسود عبد العظيم فقرر مقاطعة صلاة الجمعة، كأنه كان يبحث عن سبب يهرب فيه من الصلاة.

(٢١)

بعد غيابه عن البيت، وتحملها مسؤولية أولادها وحدها، خصوصا بعد أن فقدت العائلة مصدر رزقها فقد قررت حنان زوجة نعيم أن تعود بأولادها إلى القدس حيث أهلها الذين شجعوها على ذلك، فالحياة الأمريكية هنا مغرية للأولاد، ومن الصعوبة أن تسيطر عليهم عندما يصلون سن المراهقة. خصوصا إذا كانت الأم وحدها.
في مكالمته الأخيرة شرحت حنان لنعيم أسباب قرارها، ولم يطل شرحها فقد كان يبادلها نفس الأفكار، كانا يعرفان أنه سيكون قرارا صعبا على نعيم لأنه سيكون في السجن وحيدا بدون زيارات إلا من بعض أصدقاء خصوصا وأن المسافة بين مكان السجن الجديد وحيث يقيم الأصدقاء ليست سهلة فهي أكثر من ألف كيلو متر، ومن يريد الزيارة يجب أن يضيع يومين كاملين. وعدته بزيارة نهائية قبل موعد السفر الذي حددته مع نهاية العام الدراسي كي لا يخسر الأولاد سنة دراسية جديدة.

كان خيارا لا بد منه لكنه الأصعب الذي واجهته طيلة حياتها، ها هي تترك نعيم وحده خلف القضبان، لن تراه قبل أربع سنوات جديدة على الأقل، ستتركه يواجه مصيره وحده، يا الله كم كان مؤلما قرارها الذي اتخذته.
كل ما تذكرت أنه الآن في السجن وحده ذرفت دموعها، نعم لم تكن عنده حتى وهي في الولايات المتحدة لكن كانت الزيارة تخفف عنهم جميعا بعض ما يعانونه بسبب هذا السجن.
كانت تجلس الليالي وحدها تفكر، ماذا عساه يفعل الآن، هل يكتب رسالة لها؟ هل أصابه مكروه؟ هل اعتدى عليه أحد من السجناء؟ آه يا نعيم ما الذي أدى بك إلى ما أنت فيه؟
كيف تركتنا وحدنا؟ الأولاد يسألون عنك كل يوم، أين بابا؟ لماذا لا يعود؟ وعندما عرفوا أنك في السجن، كانوا يسألون كل يوم: لماذا بابا في السجن؟ ما الذي فعله؟ هل بابا شخص سيء؟ هكذا يقول بعض تلاميذ المدرسة عندنا. من يدخل السجن فهو شخص مجرم.
مرت فترة ليست قصيرة حتى نجحت بإقناعهم أنك لست شخصا سيئا وأنك لست مجرما، حتى بدأوا يتقبلون الواقع.
عندما ودعته في آخر زيارة لها انهارت أمامه، كانت، مع صابر، وهيام يبكون كمن فقد أعز ما يملك، كان السجناء ينظرون إليهم بغرابة، ألقت بنفسها على كتفيه، وضمته بقوة فيما دموعها كانت تسيل على كتفيه كشلال دافق، كان نحيبها أعلى من نحيب صابر وهيام اللذين وضعا رأسيهما على جنبي والدهما ينتظران دورهما في عناقه. حاول نعيم أن يحبس دموعه ليشد من أزرهم ويهون عليهم، لكنه فشل فسالت دموعه مثلهم، عانقهم جميعا، قالت له:

- سنفتقدك، شد حيلك، عندما تحتاجني بلغني سأحضر لك على جناح السرعة. طال عناقهم، ولم يتوقف نحيبهم حتى جاء السجان، متأثرا من الموقف، وذكرهم أن موعد الزيارة انتهى ولم يبق غيرهم في الغرفة، وعليهم المغادرة فورا.
تركوه يذهب وهم يشيرون إليه بجميع أياديهم.
دخل السجن وسط دهشة بعض السجناء. سأله أحد الذين كانوا بالزيارة وشاهد ما حصل:
- لماذا كل هذا البكاء، كن قويا ستأتي لزيارتك في الأسبوع القادم.
- لا لن تأتي ستسافر إلى القدس.
- على طول؟
- نعم.
وتتركك وحدك؟
- ظروف
ضحك وقال:
- دعك من هذا لعلها أرادت أن تبحث عن شخص آخر في غيابك.
- اخرس أيها الحقير إنها زوجتي.
- مان كلهم يفعلون ذلك.
- اغرب عن وجهي،
تركه وذهب ليستلقي على السرير يسبح في محيط معانياته.

أما هي فقد غادرت السجن، وقبل أن تنطلق بالسيارة متجهة إلى منسوتا دققت كثيرا في أسلاك السجن ومدخله، ثم أشاحت بوجهها لتشق بسيارتها طريقا صلبا كالجبال، فيما غرقت هيام، وصابر في حزنهما، قالت لهما: كفا عن البكاء، وادعوا لبابا أن يعود بسرعة.
تنهاهما عن البكاء وسيل دموعها لم ينقطع، كانت تحاول أن تخفف مصابهما وظلت تحكي معهما حتى لم تعد تسمع صوتا لأحد منهما، فقد ناما وعلا شخيرهما.
ما أصعب هذه الرحلة، ستقودها وحدها لمدة تسع ساعات كاملة، وهي متوترة الأعصاب.
كان تفكيرها كله نحو نعيم، كانت خائفة عليه، لا بد الآن أنه يبكي مثلنا، لكن البكاء خلف القضبان له إحساس آخر. هناك لا تجد من يخفف عنك، من يواسيك، بل ربما يسخرون منك ومن أحاسيسك التي يرونها مصطنعة.
-ريا رب احفظه لنا وأعده لنا سالما، أعده لنا بسرعة يا رب، ليس لنا غيره إن حصل له مكروه سنكون في صحراء قاحلة.

هاجمتها الذكريات تذكرته عندما كانوا يذهبون معا في رحلات للنزهة، كان يصر ألا تقود السيارة كي يريحها من عناء القيادة، وكي تستمتع بالمناظر الخلابة، والأشجار على جانبي

الطريق، وعندما كانت تصر على أن تساعده في وسط الطريق كان يجلس بجانبها يسليها بنكاته الكثيرة، ونكزاته التي لا تنقطع وهي تنهره قائلة:

- نعيم كف عن المزاح كي لا تحصل لنا كارثة.

فيتوقف ثم يبدأ بالغناء، فجأة ارتسمت بسمة على وجهها. فقد طلب منها أحد المرات أن توقف السيارة لأن دوره الآن في القيادة وعندما خرجت من باب السائق وتوجهت نحو باب الآخر التقاها في جانب الطريق السريع وضمها إليه وبدأ يكيل لها القبلات.

- نعيم ما هذا نحن وسط الطريق السريع وركاب السيارات يروننا.
- حنان ليرانا كل العالم، يجب أن أتزود بالوقود كي أتابع السواقة.

بعد أيام كانت حنان والأولاد في المطار متجهين إلى فلسطين، ودعت كل صديقاتها، وأوصلها حمدان مع زوجته إلى المطار، كان معها حقائب كثيرة، فقد حملت معها كل ملابس الأولاد، بعد أن باعت كل آثاث المنزل، وتركت البيت للبنك الذي حجز عليه، بعد أن توقفت عن دفع الدفعة الشهرية لعجزها عنها ولأن الحكومة صادرت كل أملاكه القيمة.

دفعت أكثر من ألف دولار على الحقائب الزائدة، وودعت حمدان وزوجته ودخلت إلى داخل المطار بعد التفتيشات الأمنية التي تعودت عليها وتوجهت نحو باب الطائرة بانتظار موعد إقلاعها.

وعندما كانت تجلس بجانب ولديها في مقعديهم، وشد الجميع الأحزمة بانتظار إقلاع الطائرة كان قلبها يخفق كأنها في رحلة مع الموت. لأول مرة تشعر بالخوف من الطائرة، تشعر بالرهبة لا تريد للطائرة أن تترك أرض المطار، تشعر أنها تتشبث بهذه الأرض التي لا تزال تحتضن من تحب ولو في سجن بعيد، تشعر كأنها في رحلة المجهول، ستترك خلفها من لا يعوضه كل رجال الأرض مجتمعين، وعندما أقلعت الطائرة كادت تصرخ بأعلى صوتها، لكنها حبست أنفاسها، وأغلقت عينيها، وشعرت كأن قلبها توقف عن الخفقان، كيف لها أن تتركه وحده؟ كيف لها أن تتركه بين الذئاب وهو الحمل الوديع الذي ليس له ولو ناب واحد؟ هل أخطأت في قرارها؟ أم أنه القادر على مواجهة الصعاب كما عودها؟ فتحت عينيها بعد أن كانت الطائرة تحلق عاليا في الجو، نظرت إلى الأولاد فكان كل منهما مشغول في لعبته تركوها وحدها تنشغل بلعبتها الوحيدة، لعبة الذكريات التي لم تتوقف عن مهاجمتها حتى استسلمت للنوم ليهاجمها نعيم في حلمها المحلق في الجو.

قبل خمسة عشر عاما التقت به لأول مرة عندما جاء يخطبها مع أمه وأبيه، جلست معه تتعرف عليه، كانت مترددة في البداية، وترفض الفكرة، لم تكن ترغب أن تسافر خارج فلسطين، لكن في اللقاء الثاني غيرت موقفها بعد أن شجعتها أمها، وأعلنت موافقتها. لم تكن تعلم أنه سيكون فارس أحلامها الذي لم تكن لتقبل عنه بديلا.

(٢٢)

كان يوما متعبا رغم أنك كنتَ في زيارة الأحبة، عدت إلى داخل الكامب محبطا لا تعرف ماذا تعمل، لم ينقذك من كآبتك إلا صوت السجان عبر مكبر الصوت، عدد، عدد، حان وقت العدد، وعليك التواجد في مكان العمل.

في اليوم التالي استيقظت أكثر تعبا، فالأحلام لم تتركك تهدأ، وعندما اتصلت بها لتتأكد من وصولها البيت، انفجرت بك باكية عبر الهاتف، لم تعرف كيف تضبط دموعها، زادك هذا ألما فذهبت إلى غرفة رقم ثلاثة حيث كان بعض الشباب الذين تعرفهم يلعبون الورق، وعندما رآوك طلبوا منك أخذ دورك للعب، بينما علا صوت رجل كهل في العقد السادس من عمره، أبيض، قال بصوت عال:

- لقد جاءكم الإرهابي.

امتعضتَ من قوله، نظرت إليه وقلت له بأدب، لا تعد هذا الكلام.

هز رأسه ورد عليك بعنجهية:

- أنا حر فيما أقول.

تركتَه وجلستَ بقربهم، قال لك أحد الجالسين: (لا تنصت إليه هذا عنصري تافه).

قلتَ له بأنك لا تحسب حساب أمثاله لكنك لا تريد إيذاء رجل كبير في السن.

كنتَ تراقب اللعب وقد اشتدت سخونته، اقترب الرجل الأبيض وكان اسمه (تيموثي)، نظر إليك بغضب، وعندما أدرت وجهك نحوه لتسأله ما الذي يريده، اقترب منك حتى كاد وجهه يلامس وجهك، كانت عيونه تفيض شررا، ثم بصق في وجهك بصقة ملأت وجهك، وسط عيون كل من في الغرفة الذين ذهب كل منهم إلى سريره انتظارا لمعركة لا بد قائمة، ترك اللاعبون الورق ووقفوا كلهم يتفرجون، عاد تيموثي إلى سريره بعد أن أفرغ ما في داخله من شتائم:

- أيها الإرهابي الوقح، لا أحد يرفع صوته بي هنا، أنت العربي الذي جاء يحتل بلدنا، عد إلى حيث أتيت.

لم تصدق ما سمعت، ذهبت إلى غرفة الحمام لتمسح وجهك وتغسله فلحق بك صديقك (إي جي) الشاب الأسود، العريض المنكبين، طويل القامة، وهمس في أذنك:

- اسمع البصق في الوجه هنا في السجن له معنى كبير كبير جدا، ستصبح ممسحة لكل سجين بعد اليوم، وسوف يتمادى عليك كثيرون، عليك الرد، لا تقلق لن أسمح لأحد أن يدافع عنه، سأقف بالباب أراقب حركة السجان، وعندما أراه قادما باتجاه الغرفة سأعلمك لتخرج منها فورا. هل أنت قادر على مواجهته؟

ضحكتَ بغضب فتكسر الشرر على وجهك، وقلت:

- طبعا، لا تقلق.
- انتبه فرغم كبر سنه فهو ضخم الجثة، فقد كان هذا التنن مصارعا في شبابه، لا تتهاون معه، هل أنت جاهز؟
هززت رأسك،
قال لك:
- انتظر حركة مني بعد أن أراقب مكان وجود السجان.
ذهب (إي جي) عند الباب، وقف في وسطه، وصوب نظره نحو منتصف المردوان حيث غرفة السجان المناوب. فشاهده يتجه في الاتجاه الآخر من المردوان، فورا رفع يده لك إيذانا ببدء النزال.
اقتربت من (تيموثي)، وبكل قوة منحها لك الغضب المعشعش في قلبك، بدأت تكيل له اللكمات دون أن تبادره بكلمة واحدة.
قبل أن يستعيد رباطة جأشه، ويقف كان قد تلقى الكثير من اللكمات التي حولت وجهة لساحة ألعاب نارية.
وعندما وقف اشتبكت معه في معركة قوية كأنها حرب حقيقية بطلها جيشان، كل جيش من فرد واحد، كان مسلحا بعنصريته، واستخفافه، وحقده عليك، وكنت مسلحا بقوة الحق، ومعك كل من يشعر بظلم، كان البيض يتفرجون وقلوبهم مع (تيموثي)، وكان السود قلوبهم معك، كأنهم يفرغون كل ظلم حاق بهم بحق (تيموثي) الذي مثل بالنسبة لهم كل البيض العنصريين الذين استعبدوا أجدادهم وأذاقوهم الويل، وفرقوا شملهم.
بعد أن أوقعته أرضا استسلم بين يديك فتركته وخرجت من الغرفة قبل أن يصل السجان خبر المعركة.
ذهبت إلى المطبخ حيث تعمل، شاهدك (الأميغو فرناندو) فسألك:
- هل تشاجرت مع أحد؟
لم ترد طبعا فهذه أمور لا يجري الحديث بها هنا.
فقال لك على الفور:
- اسمع أنت مصاب بخدش بسيط في وجهك، عليك إيجاد سبب له وإلا أخذوك للعزل الانفرادي، فهذا الخدش عندهم يعني أنك اشتركت في شجار مع أحدهم.
وقبل أن تسأله، ما العمل؟ قال لك:
- اسمع خذ صينية وارمها على الأرض ثم الق نفسك فوقها، وسأذهب لأحضر السجان الطباخ ليكتب لك تقريرا أنك أصبت بسبب سقوطك على الأرض، وبسمح لك الذهاب للعيادة. انتبه عندما يأتي السجان، تظاهر أنك متعب، وأن عينك تؤلمك.
- مفهوم؟

جاء السجان على الفور وطلب لك الممرض المناوب ونقلوك على الفور إلى العيادة.

أسعفوك بسرعة وخرجتَ من العيادة منتصرا، كنت قد شفيت غليلك، وها قد سجل الحادث ضد مجهول، فخصمك (تيموثي) لن يعترف بمن أحدث له تلك الجروح في وجهه، لن يفعلها أحد لأنه لو فعها سيصبح ممسحة السجن كله، الاعتراف لإدارة السجن عار لا يقبله سجين حتى لو كان ضعيفا غير قادر على حماية نفسه.

في اليوم التالي كان تيموثي في الزنزانة لمدة شهر، حاول أن يتهرب من السجانين لكنهم عندما شاهدوه أثناء العدد أخذوه للعزل الانفرادي، وكنت أنت تسير في مردوان السجن رافع الرأس ومعك صديقك الأسود (إي جي)، كنتَ تبدو بجانبه قصيرا، همس لك وأنتما تسيران معا وسط الساحة الخارجية بعد العصر:

- كل السجناء ينظرون إليك من الخلف ويتهامسون عليك.
- هل عرفوا كلهم؟
- أكيد لقد بدأوا يحسبون حسابك بشكل جيد. لقد نجحت في الامتحان. هؤلاء الزبالة البيض أنت لا تعرفهم، عنصريون.
- ليسوا كلهم يا إي جي، هناك إناس طيبون كثر. لا تكن مثلهم عنصريا.
- أنا عنصري؟ أتقول لي ذلك؟ هل أنا الذي استعبدتهم أربع مئة سنة؟
- لكنها مرحلة وانتهت، هل ستعيش عمرك وأنت تحمل هذه الأفكار؟
- انتهت كحقبة تاريخية، لكن آثارها لا أحد يمكنه أن يسامح بها.
- وماذا تريده منهم؟ ها هم انتخبوا رئيسا أسود لأمريكا.
- أخي، عليك أن تعلم أنهم لم يستعبدونا فقط، لقد قطعوا عائلاتنا عن بعض، فرقونا بأن باعوا كل فرد منا لعائلة أبيض، غيروا أسماءنا، هل تعتقد أن اسم أحد أجدادي كان جاكسون، أو سمبسون كاسم عائلتي الآن؟ من منا يعرف من أين جاء، ما هو أصولنا. لم يسلبوا فقط عرقنا، وعملنا، لكنهم سلبونا أسماءنا، ثقافتنا، ديننا القديم الذي بالتأكيد لم يكن دينهم.
- يبدو أنك حاقد عليهم.
- حاقد كلمة خفيفة، أنا أتمنى أن يأتي يوم يختفون به عن الوجود.
- ولكن هذه أمور أصبحت تاريخا مضى.
- أنت هنا جئت لأمريكا بمحض إرادتك، لم يجبرك أحد، نحن جلبنا إلى هنا بالسلاسل، لنعمل عبيدا لهم، وهم جاءوا غزاة ليقتلوا سكانها الأصليين. عليهم تعويضنا عن كل سنوات الحرمان التي عشناها بسببهم.
- لكني لا أسمع ذلك من كل السود.

- لا يصرحون بها كي لا يقال عنهم أنهم عنصريون، أو كي يبدون أمام البيض أنهم أصبحوا مثلهم من الأسياد، ونسوا كل مرحلة العبودية.

في اليوم التالي استدعاك السجان المناوب (ماكس) إلى مكتبه، طلب منك الجلوس، وقال لك بالحرف الواحد:
- نعيم، أنا أعرف أنك أنت من تشاجر مع (تيموثي)، لكنه لم يش بك، هو بالزنزانة، لمدة شهر، وأنت خارجها، عرفت أنه هو الذي اعتدى عليك، وأن الحق معك، لكني أريد أن أحذرك من شيء لم تحسب حسابه، أن السجناء البيض كثيرون، وهم يتضامنون معا، وكثير منهم عنصريون، وأنت عربي في نظرهم غير مرغوب، وتشاهد الإعلام كيف يصوركم أنكم إرهابيون وتقطعون الرؤوس لذلك أريدك أن تنتبه جيدا ولا تكرر ذلك أبدا. لا أريد مشاكل عندي، وإلا نقلتك لسجن آخر.

(٢٣)

حبيبي ونور عيني نعيم
لا أدري من أين أبدأ فقد تحدثنا معا عبر الهاتف أكثر من مرة لكن لم يكن الوقت يتسع لشرح كل شيء، فالوقت قصير، والاتصال معنا أصبح مكلفا جدا، وأنت عندك لا يوجد من يرسل لك فلوس سوى حمدان أحيانا، ولا أريد أن أفتح عليك باب الأحزان.
مشتاقة لك جدا جدا أكثر مما تتصور، فأنا هنا لا أشعر بخصوصيتي لقد نزلت عند أهلي، وتعرف أنه ليس عندهم سوى غرفة واحدة زيادة ونحن كلنا أنا والأولاد ننام فيها، لكني إن شاء الله سأبحث عن عمل هنا لأصرف علينا رغم أن والدي يقول لي لا تقلقي على شيء، لكني لا أريد أن أحمله فوق طاقته.
حديثنا عنك كل يوم، صابر وهيام دوما يسألان: متى يأتي بابا؟ متى نراه؟ متى يتصل؟ أسئلة كثيرة أحتار أحيانا ما أقول. أنت تعلم أن صابر أصبح مراهقا، ويحتاج لوالده بجانبه، هناك أمور لا يصلح لها إلا الأب، وجودك اليوم ضروري لذلك نفتقدك.
أما أنا فأشعر بالضياع، غيابك أثر علي كثيرا، أشتاق إليك كل يوم، كل ساعة، أحتاج لحنانك، لهمساتك، لوقوفك بجانبي، أحلم أنك تزورني كل يوم، وعندما أستيقظ ولا أجدك أجهش ببكاء صامت، كي لا يسمعه أحد، الأولاد يشكون لي همومهم، لكن لمن تشكو أمثالي؟؟ رغم ذلك أتعلق بحبال الصبر، الصبر، الصبر، أدعو الله في كل صلاة أن يجمعنا بك قريبا ويفرج كربك، قبل أيام حلمت أنك في ضيق، فاستيقظت بالليل، ولم أنم بعدها، طمني عنك، كيف أخبارك هناك بين المجرمين؟ هل يحاولون الاعتداء عليك؟ حاول الابتعاد عنهم، ولا تتدخل بهم، لا تنس الصلاة، فهي التي تنجيك من كل مكروه، ادعوه يستجب لكم.
لقد سجلت صابر، وهيام بالمدرسة ودفعت الرسوم فقد دفعها والدي جازاه الله خيرا، وازداد الحمل علي، فهما يحتاجون للمساعدة في الدراسة لأنهما انتقلا من لغة إلى أخرى، إنهما يتذمران من الدراسة هنا، لقد كرها الدراسة والتدريس وهذا يصعب علي المهمة، ففي النهار أساعد أمي في عمل البيت، فقد صرنا معظم سكانه، وفي الليل تدريس، وما أن تحل ساعة النوم حتى أكون منهارة من التعب.

أعيد لك ما قاله المحامي أن بطاقة الهوية تحتاج للمكوث في البلد لفترة قبل أن يستطيع التوجه للمحكمة للمطالبة باستعادتها، حتى البلد التي ولدنا بها وولد بها آباؤنا وأجدادنا صرنا غرباء فيها، وحتى تلك الفترة لا نستطيع الخروج من البلد، ولا حتى خارج حدود القدس لرام الله مثلا.
المشكلة الكبرى يا حبيبي هي صابر فالجيش هنا أحيانا يوقفونه ويسألونه عن بطاقة الهوية، وعندما نقول لهم أن عمره ثلاث عشرة سنة يسألون عن شهادة ميلاده، وعندما

يعرفون أنها أمريكية يسألون عن الفيزا، ولا يتركوننا إلا بعد ساعة حتى أصيب صابر بالإحباط وأصبح لا يحب الخروج من البيت.

الوضع هنا صعب جدا يا نعيم، لم أشعر بهذا التغيير إلا بعد أن سكنت هنا، كنا في زياراتنا السابقة كسياح لا يرون إلا المناطق الجميلة، ويقضون أيامهم في سهرات مع الأهل، والأصدقاء، إلى أن تنتهي مدة الزيارة التي كانت في الغالب شهرين، أما اليوم فقد شاهدت ولمست الواقع بكل تفاصيلة، كثرت المستوطنات، وكثر تحرش المستوطنين بنا، كانوا قبل عشرين عاما يخافون مواجهتنا، فأصبحوا اليوم هم من يخيفون أولادنا، يغلقون الطرق علينا على مرأى وسمع قوات أمنهم، أصبحوا يعيشون بيننا، مستوطنات بسجات زئيف، رمات أشكول وغيرها صارت مدنا كبيرة، لم يكتفوا بشق شوارعهم في أراضينا بل صادروا نصف شارع شعفاط للقطار الذي ينقلهم لمستوطناتهم التي صارت تحاذي مناطق سكننا، صرنا جيران بالقوة، قريبا قد نصبح سكانا في عماراتهم، القدس تغيرت كثيرا يا نعيم، قوات شرطة في كل مكان، لا تشعر بالراحة، فنظراتهم إليك وأياديهم على الزناد تشعرك بالخوف، أخاف على الأولاد. الوضع مقلق، لكني استخرت الله وآمل ألا يكون قراري خاطئا، الأولاد يطالبونني أن نعود، لكني أحاول أن أصبرهم، وآخذهم لرحلات قصيرة أحيانا ليافا، وطبريا كي يسكتوا، ولا يشعرون بالملل.

حبيبي أطلت عليك كثيرا، اعذرني، حتى أنني نسيت أن أسألك عن نفسك، عن وضعك هناك، طمني بالله عليك لا تحجب عني أخبارك، قل لي، كيف تقضي وقتك؟
لا بد أنك منشغل بنا.
حبيبي إذا طال عليك الصبر، وغلبتك المسافات، واجتاحتك العواطف، والتهب قلبك بالشوق، والحنين، عليك بكلمات الله، عليك بالقرآن، سيكون انشراحا لصدرك، ونورا لقلبك، وربيعا لعمرك، إن شاء الله.
أستودعك الله الذي لا تضيع عنده الودائع فهو أرحم بنا من أمهاتنا. والفرج آت لا محالة.
أحبك، أحبك أحبك كثيرا جدا، وإلى اللقاء
قبلاتي الحارة.
زوجتك حنان

ها أنت تنهي رسالة زوجتك التي كنت تنتظرها، وتعيد التدقيق بالصور التي أرسلتها لك وسط اختلاط البسمة بالدمعة، ها هم أمامك بالصورة بعد أن غزوك في كل أحلامك، صور لم تخفف من شوقك إليهم بل زادته لهيبا، ها هي حنان أمامك ببسمتها، وشعرها الطويل، لكن خيط من الأسى يملأ وجهها، نعم صدق من قال للوجه لغته، لا يعرفها إلا قارئ واحد تفنن في لغة الوجوه. تركت لديها حملا كبيرا، أنت السبب، كنت تتوهم أنك في بلد الحرية،

والديمقراطية، فصرت تنشط من أجل الوطن، عجزوا عن اتهامك بالإرهاب فوجهوا لك تهمة الضريبة التي كانت من اختصاص الولاية، لكنهم حولوها لقضية فدرالية بإضافة كلمة التآمر إليها كي يجدوا مبررا قانونيا لسجنك.
آه أنت اليوم تشعر بالندم والأسى، فشوقك لزوجتك، والأولاد أعادك للوراء كثيرا، من نعم السجن عليك أنه كشف لك معدن من حولك، وزيف كثير من أصدقائك، أو من كنت تثق بهم.
ما الذي ستتركه للأولاد بعد خروجك من السجن؟ ستخرج معدما لا شيء معك، ستبدأ بالبحث عن عمل مثل أي شخص آخر كأنك تدخل الولايات المتحدة من جديد.

وحنان سيطول انتظارها، سيزيد شوقها، ستزيد الأعباء عليها، لن يخفف عنها كثرة الرسائل، ولا طول المكالمات الهاتفية، فضمك لها مرة تساوي ألف رسالة، هل تعرف ذلك؟
شعورك بالذنب لن يغير المعادلة، ندمك على ما اقترفته يداك، لن يحسن الوضع، شكواك لها، أو لنفسك لن يقدم أو يؤخر، الذي جرى يجب أن يعيد حساباتك من جديد، عليك التعلم مما حصل، هل لديك خطة للمستقبل؟
عندما تخرج من السجن، وتعود إلى الوطن ما الذي ستعمله هناك؟ لا يهتم بمشاكلك أحد، فلديهم من المشاكل ما يكفيهم، لن يسألونك لماذا سجنت، ولا كيف أخبارك، بل سيسألونك السؤال المعهود، هل عدت برأس مال؟ هل عدت بشهادة؟ وعندما يعرفون أن الجواب لا، لن تراهم بعد ذلك أبدا.

كنت سارحا في البعيد عندما اخترق خلوتك (جورج لويس) الذي أصبح رفيق غرفتك الثنائية، هو يسكن في الأعلى وأنت تسكن في الأسفل، دخل يحمل كتابا كعادته، هذا الرجل المحكوم خمس سنوات بتهمة الاتجار بالمخدرات، غلبك في القراءة، فهو يقرأ بمعدل كتابا كل يومين وأحيانا ينهي رواية كاملة في يوم واحد.
برنامجه لم يتغير منذ سكنت معه في الغرفة، بعد العودة من العشاء حوالي السادسة مساء يستلقي على سريره ويبدأ بالقراءة حتى يشعر بالنعاس فينام، وفي أيام العطل الرسمية يمضي معظم نهاره وليله بالقراءة، ومن النادر أن تجده خارج الغرفة يمشي في المردوان، حتى كنت تعجب كيف أصبح هذا النهم للقراءة تاجر مخدرات؟
كان يجيبك بكل صراحة:
- لم أجد عملا غيرها، كان مصدر رزق بالنسبة لي لا غير، لم أعمل الملايين منها لكني كنت فقط أعيل نفسي من ذلك، فأنا من قرية صغيرة في شمال ميسوري، كان كثير من سكانها عاطلون عن العمل، كنت أعيش في بيت منزو عن القرية وليس معي سوى زوجتي وكلبي الذي كان يساعدني في الصيد.
كان صيادا ماهرا كما يقول يحب امتلاك السلاح، السلاح بالنسبة له ولأمثاله القاطنين في القرى مهم جدا فلا أمان دون سلاح، هكذا كان يقول، كنت مرتاحا لوجوده معك بالغرفة

فقد كان هادئا غير مزعج، لكنك اصطدمت معه في فصل الشتاء، فقد كنت تحب أن تكون الغرفة دافئة أما هو فقد كان يحب حرارتها منخفضة، كان غريب الأطوار فهو لا ينام إلا ومروحة الهواء الصغيرة التي اشتراها من بقالة السجن تعمل فوق رأسه، وعندما ترك لك صديقك فرانك بعد الخروج من السجن مروحته الكبيرة فقد منحتها له لأنك تكره المراوح وتحب الحرارة المرتفعة، وبذلك أصبح يترك مروحتين طوال وجوده بالغرفة حتى في لحظة البرد القارس الذي تنخفض فيه الحرارة عن العشرين تحت الصفر.
كان مؤشر الحرارة عندك أسفل الجدار، فكنت كل ما شعرت بالبرد في الشتاء ترفع الحرارة دون أن يراك كي لا يحتج على ذلك، لكن لم تكن تمضي دقائق معدودة حتى ينتبه كأن في جسمه جهاز قياس للحرارة، فيقسم اليمين أنك رفعت الحرارة وأن ذلك مخالفا للاتفاق، وتدب الخلافات ويعلو صوتكما فتعود وتخفضها رغم شعورك بالبرد، وعندما تطلب منه وقف المراوح يقول لك أنه لا يستطيع النوم إلا هكذا.

في إحدى الليالي كان الوقت بعد منتصف الليل، استيقظ مذعورا ونزل من السرير العلوي وضرب باب الغرفة بيديه حتى كاد يكسره وخرج يصرخ في مردوان القسم الداخلي، أنه لا يستطيع تحمل هذا الوضع، لا يستطيع التنفس، لن يقبل بذلك، استيقظ بعض السجناء من الغرف الصغيرة المجاورة وخرجوا يحاولون تهدئة الوضع قبل أن يأتي السجان فيأخذكما معا للزنزانة.
ورغم أنك كنت نائما في ذلك الوقت ولم تلمس صنبور التدفئة مطلقا لكن شعرت بأن صبرك قد نفذ، فقلت له بعد أن هدأ بأنك ستطلب الانتقال من الغرفة إلى غرفة أخرى، وفعلا فقد عزمت على ذلك.
لكنه في الصباح عندما استقظ للعمل، سألك:
- هل فعلا سوف تنتقل من الغرفة؟
فأجبته بنعم كي لا تصطدم معه باليدين.
فاعتذر لك وطالبك أن تعدل عن قرارك، وعندما رفضت بدأ يتودد لك، فسألته لماذا يريدك ألا ترحل من عنده، فقال لك:
- لن أجد أفضل منك شريكا بالغرفة، فأنت هادئ مثلي، لا تأتي بسجناء آخرين ليزورونك بالغرفة، تنام مبكرا مثلي تستيقظ مبكرا للعمل بالمطبخ، تحافظ على النظافة، من أين سأجد هذه الصفات في غيرك من السجناء؟ أرجوك اقبل اعتذاري.

لم تتردد في قبول اعتذاره فقد كان رغم سلبياته أفضل من كثير من السجناء الذين لو عشت معهم في غرفة واحدة لأصبحت في وضع لا يحسدك عليه أحد..

(٢٤)

في السجن يصفو ذهنك من مشاغلك اليومية، وتعيد تقلب حياتك كلها منذ أن وعيت على هذه الدنيا حتى اليوم، تحاول أن تحدد أين أخطأت، وأين أصبت.
تدقق في كل صغيرة وكبيرة وترسم معالم ما بعد السجن، معالم المستقبل الذي تحن إليه بعد تمحيص وتفكير، وتكتب على الورق خطة عقد قادم من الزمان كأن الرياح ستجري حسب سفن خططك، وأحلامك.

كنت تجد متعة جدا في القراءة، ونهل المعرفة، كنت تقضي ساعات طويلة في المكتبة الصغيرة في السجن، وكنت تسأل نفسك كل ما أنهيتَ كتابا لماذا كنت تهمل تلك المتعة خارج السجن؟

في مكتبة السجن كان كثير من الأفلام الوثائقية التي تحكي تاريخ أمريكا على حقيقته، تاريخ الأمريكيين الأصليين، والمجازر التي تعرضوا لها، تاريخ السود، ومرحلة العبودية ... وكان بإمكانك مشاهدة أي فلم وحدك أو مع آخرين، لذلك لم تترك فيديو إلا وشاهدته حتى حفظتها كلها عن ظهر قلب.

رغم حبك للقراءة، والرياضة لكن ذلك لم يمنعك أن تسرح بعيدا حتى وأنت منشغل في قراءة رواية، أو كتاب، كنت تسأل نفسك كثيرا، كيف صرت هنا؟
كيف انهارت كل مشاريعك فجأة؟
دفتر ذكرياتك أصبح مثل كتاب صرت تستطيع أن تحدد الصفحة التي تريد استعادتها، وبلمحة البصر كانت تتقدم إلى مقدمة الذاكرة كأنها حدث يواجهك الآن.
في غرفة المكتبة، هل تذكر، كان يوم أحد، عطلة رسمية لكل العاملين ما عدا عمال المطبخ، السابعة صباحا، معظم السجناء يغطون في سبات عميق فمعظمهم كان لا يخرج للفطور كي يناموا وقتا أطول إلا أنت فقد كنت تجلس في غرفة المكتبة تتابع روايتك بعيدا عن شخير جورج في الغرفة، كنت تنتقل من صفحة إلى صفحة حتى أغمضت عينيك دون أن تدري وحلقت في غياهب الذكريات بسرعة البرق.

في مطلع السبعينيات بعد أن شاهدت لأول مرة فلم شكري سرحان، وماجدة (قيس، وليلى)، شدك الفلم وتأثرت بقيس بن الملوح، وقررت أن تكون مثله، ولذا عشقتها، وتيمت نفسك بها، كانت من سكان القدس القديمة وكانت تكبرك بسنة، وصرت تشكو لأهل البيت أن قلبك يوجعك، وبعد أن أغلقوا آذانهم وسخروا من حبك، وهيامك، أصبح فايز هو الصديق الذي تشكو له صدق حبك.
ولأجلها صرت مغروما، تستمع للأغاني العاطفية كل يوم، واشتريت مسجلا وأشرطة كاسيت لفريد الأطرش، وعبد الوهاب، وعبد الحليم، وأم كلثوم وبت تهيم بالشوارع مع صديقك فايز تشكو لوعة قلبك.

ها أنت في وادي الجوز مساء يوم من صيف ١٩٧٣، كنت مع صديقك فايز تتسكعان من شارع لشارع، تحمل مسجلك في يدك، وفي جيبك بعض الأشرطة، وكان صوت مسجلك يقطع سكون الليل، فيعكر مزاج السكان.
كنت وفايز ترددان أغنية فريد الأطرش، (يا ويلي من حبه يا ويلي)، كنت تشكو له همك وعذابك معها، وكان يشرح لك عشقه لحبيبته، ولأنه كان أكبر منك فقد كان يوجه لك إرشاداته كخبير لا يشق له غبار مع أنه كان يكبرك بعامين فقط، كان يشرح لك كيف تتعامل معها، وكيف توقعها في حبك وأنت تسمع ما يقوله بانسجام، كأنه محاضر في جامعة هارفارد.

كان يشجعك أن تواجهها وهي في الطريق من المدرسة للبيت، وعندما كنت تلتقي بها في شارع الواد أو باب العمود وجها لوجه، كنت تتعلثم، ولا تعرف ماذا تقول، وكان يشير لك بيده من بعيد مشجعا أن اقترب، ويشير بإصبعه لشفتيه أن تكلمْ، قلْ لها ما أشار عليك به، لكنك تخرس كأن على رأسك الطير، ولكن ما أن كانت تبتعد عنك قليلا حتى يكسر لسانك قيده، ويهذي بتعليقات المراهقين، وليس بشكوى عاشق.

بقيت عاشقا واهما على هذه الحال إلى أن طرق قلبك حب آخر فأصبح الأول مجرد ذكريات الطفولة والمراهقة.

تجربة عاطفية هزتك من الأعماق، دغدغت عواطفك النبيلة، حركت ملكة الشعر عندك فكتبت لها أول محاولاتك، ها أن تكب:
أحببت فاتنةً، وذاك لأنها
هيفاء قد سحرت فؤادي يا لها
أحببت في قدها، نظراتها
وعشقت فيها حسنها ودلالها
رباه إني قد هويت حبيبة

القلب يخفق كلما ذكر اسمها
ولأجلها سأعيش عمري شاعرا
وعلى السطور أخط قصة حبها

(٢٥)

عندما يفتك بك المرض، وتجد نفسك لا تقوى على الحركة، تلزم سريرك مرغما ليس لديك غير الدعاء إلى الله أن يشفيك، فقد يحولك المرض إلى ورقة تتقاذفها الريح فلا تقوى على مقاومته فتميل حيث تميل، وعندما يجتمع السجن، والمرض معا فالمصيبة مضاعفة لا يعرفها إلا من يجربها، هناك خارج القضبان يمكنك الاستعانة بزوجتك، أو بعض أقاربك كي يكونوا بجانبك، ينقلونك للمستشفى يسهرون على راحتك، يشدون من أزرك، أما هنا فأنت تحت رحمة السجان الذي لا يهتم بأوجاعك، أو مرضك، إن لم يكن يتلذذ بها ولسان حاله يقول:

- لماذا جئت إلى السجن؟

كنت تتلوى من الألم، لم تستطع الانتقال من فراشك، طلبت من السجان أن ينقلوك للمستشفى فرفض ووعدك أن يتصل بالممرض إن كان بإمكانه أن يأتيك من السجن المجاور، عدتَ إلى سريرك متعبا، شعرت أنك في ساعاتك الأخيرة، أظلمتْ الدنيا بوجهك، أفرغتَ كل ما في جوفك، انهارت دموعك دون أن تدري، قال لك بعض السجناء أن وجهك أصفر، وعليك أن تصر على أن ينقلوك للمستشفى، جاءك السجناء العرب، أحضر فارس إليك قرص دواء مسكن للألم، وحاول مع السجان لكنه لم يلق إلا الصد. جلس معك نصف ساعة مع عصام، ثم غادرا الغرفة مع الآخرين يتابعون أعمالهم، بقيت وحدك في الغرفة، كان نزيلك بالغرفة في المكتبة، كنت في قمة مرضك، لا أحد بجانبك، غابت عنك والدتك التي كانت تسهر عليك وأنت صغير، غابت عنك زوجتك التي كانت عندما تمرض لا تغادر غرفة النوم، أو المستشفى حتى تطمئن عليك، غاب عنك طبيبك، غاب الأصدقاء، غاب الهاتف، كأنك في صحراء قاحلة لا ماء فيها، ولا شجر، هل هي النهاية؟ هل ستموت قبل أن ترى العائلة؟ دخل عليك نزيل غرفتك، رق قلبه لحالك، وقال:

- ألم يسعفوك بعد؟

- كلا، قال لي السجان أنه اتصل بالطبيب المناوب وسيحضر عندما يستطيع.

ضحك وقال:

- اسمع لن يهتموا بك، ولن يحضر الطبيب، هذه ردود مسكنة فقط، مثل مسكن الألم.

- وماذا أفعل هل أضرب السجان؟

- كلا، لكن سأشرح لك ما تفعل هل أنت جاهز؟

هززت رأسك.

- إذن انهض،

خرجتَ من الغرفة تسير مثل عجوز جاوزت المئة عام، كان المرض يظلل عينيك فبالكاد ترى أمامك سرتَ بخطى متثاقلة، وجسمك يتلوى كما الأفعى، كان جورج خلفك يراقبك من بعيد ومعه صاحبك فارس الذي حضر ليشارك بالخطة، وعندما صرت أمام غرفة السجان المناوب، سقطتَ على الأرض، وصرختَ من الألم، اقترب جورج بسرعة وصار يصرخ:
- النجدة، النجدة، نعيم سيموت، وتبعه فارس، فخرج السجان مسرعا، وعندما رآك وقد تجمع السجناء حولك، حمل جهاز الإنذار عنده وأرسل رسالة نجدة إلى المسؤول المناوب في السجن:
- عندي سجين سقط على الأرض وهو في وضع صعب، نحتاج إلى إسعاف فورا. ثم طلب من السجناء أن يبتعدوا عنك.
الألم أفقدك اتزانك ففقدت وعيك.

كنت وحدك في عيادة السجن مع الطبيب المناوب، بعد تشخيصك قدم لك بعض الأدوية وقال لك أنك مصاب بانفلونزا حادة، وطلب منك أن تلزم الفراش لعدة أيام.
خرجت من العيادة تحمل الأدوية، كان الجميع قد تفرقوا، وعادوا لغرفهم فقد حان موعد العدد، فعدت مسرعا متعبا، وعندما دخلت غرفتك سألك جورج:
- هل تشعر بتحسن؟؟
- لا لا أشعر. ثم استلقيت على فراشك من جديد راغبا في النوم حتى صبيحة اليوم التالي.

لو كانت حنان عندك لما تركتك ثانية، وقدمت لك الدواء وأنت في فراشك، يكفي وجودها معك في تلك اللحظات، فقد كانت تهبك الحنان، والدفء، يكفي نظراتها، واهتمامها كان يشعرك بالراحة.
نعم لا تشعر بعظمة من تحب إلا عندما تفتقدها في اللحظات الصعبة.

كانت صورتها معلقة في سقف السرير العلوي، كنت تنظر إليها وأنت تئن من الألم وتناجيها:
آه يا حنان، ليتك بجانبي، كم أفتقدك اليوم، كم أشعر أنني بحاجة إليك، لأول مرة أشعر بالضعف، والانهيار، الألم والسجن عندما يمتزجان يصعب هضمهما.
كم أنت عظيمة يا حنان، كم أنت نادرة في هذا الوجود.
لا تؤاخذيني فاليوم موعد اتصالي بك، لكن كيف أتصل وأنا بهذه الحال؟ سيصيبك صوتي بالجنون، وسأتركك تبكين أياما قبل أن تسمعي صوتي من جديد.
ترى هل تتساءلين لماذا لم أتصل بك؟
هل ستقلقين علي؟
أعرف أنك لن تهدئي حتى أتصل. لكن سامحيني فأنا في وضع صعب، لا أستطيع مغادرة الفراش، أنا هنا وحيد رغم كثرة السجناء.

(٢٦)

لم تنم حنان ليلتها، كانت قلقة لأن نعيم لم يتصل بها، كانت تضرب أخماسا بأسداس، لماذا لم يتصل؟
هل أصابه مكروه؟ هل اعتدى عليه أحد؟ هل نقلوه للعزل الانفرادي؟
أحضرت قلما وورقة وبدأت تكتب له:

لم أنم حتى ساعات الصباح، قلقتُ عليكَ كثيرا لأنك لم تتصل يوم أمس كما عودتنا، كان الأولاد متلهفين لسماع صوتك، وكنتُ أكثر تلهفا منهم، بل كنتُ أكثر قلقا. أشعر أنكَ في خطر، إحساسي يقول لي أنك تعاني من شيء منعك من الاتصال، أشعر أنك بحاجة لي، وقد تخلفتُ عنك، قصرتُ بحقك، ليتني لم أعد من الولايات المتحدة، وبقيتُ أزورك بالسجن أسبوعيا، كنتُ على الأقل سأتسلح ببعض صبرك، وأمدك ببعض الحنان، والدفء الذي عودتك عليه.
كم صعبة هي الحياة بدونك يا نعيم، ما الذي تعاني منه الآن؟ أي وغد يحاول التحرش بك هناك؟
كل دقيقة تمر بدونك لا معنى لها، هل تذكر أغنية صباح فخري التي كنت تغنيها لي: (عيشة لا حب فيها، جدول لا ماء فيه)؟
بل عيشة أنت لست فيها، ليس لها أي معنى.

عندما أتفقد ألبوم صورنا يا نعيم كل يوم، أقف سارحة في تلك الصورة التي تجمعني معك والتي التقطناها في يوم عرسنا في قمة جبل الطور، وأنت خلفي تطوقني بذراعيك، والقدس خلفنا بجمالها، وعظمتها، كأنك والقدس تطوقاني معا، كم أحتاج لهذا الطوق من جديد، إنه العقد الذي كنت ولم أزل أرفض أن أخلعه من حول رقبتي.

وهل تذكر تلك الصورة التي جمعتني معك في نهر المسسيبي، ونحن على قارب صغير نبحر فيه وحدنا، لا أحد معنا، قارب حبنا، كانت الأمواج تحرك القارب، بعد أن أوقفنا محركه وسط النهر لنلتقط معا صورة سلفي تجمعنا وخلفنا الماء والأشجار.

كنت تقول لي: أنت موهبة السماء التي أتتني من حيث لا أحتسب، وكنت أنا أقول وأنا في حضنك لحظة غروب الشمس: إنك شمسي التي لا تغيب.
كان حبك هو الحياة، ولولاه لا أعرف اليوم كيف كنت.

سأظل قلقة حتى تتصل وأسمع صوتك من جديد، هذه الرسالة سأرسلها لك غدا صباحا، بل سأرسلها مع والدي كي يرسلها بالبريد، ولن أخرج من البيت بانتظار اتصالك فلا أعلم بعد هذا الانقطاع متى سوف تتصل. لدي إحساس أن اتصالك القادم سيكون في وقت لم تتعود الاتصال به.

حبيبتك وزوجتك
حنان

(٢٧)

أصبح لديك الآلاف من طوابع البريد، صرتَ غنيا داخل السجن، فعملك در عليك دخلا إضافيا، صرت محترفا في تهريب كل شيء من المطبخ، وصار لديك زبائن دائمون، تجارة مربحة، ومنافسوها قلة، فلا أحد غير الطباخين يستطيعون القيام بما تقوم به. لهذا كنت تعمل سبعة أيام في الأسبوع، تنازلت عن يوم عطلتك الرسمية، يا لك من تاجر سجن ذكي.
لكن ليس في السجن بنك تخبئ فيه طوابعك البريدية التي بها تستطيع شراء أي شيء.
وليس في السجن مكان آمن، وإدارة السجن تقوم بين الحين والآخر بتفتيش شامل، والويل لك إن عثروا على هذه الطوابع، التخلص منها مهم، بعض السجناء المقامرين كانوا مستعدين أن يشتروها منك، على أن يطلبوا من أهاليهم تحويل ثمنها إلى أحد أقاربك، أو أصدقائك خارج السجن.
عندما زارك حمدان أخبرته بالموضوع، بأنه سيصله بعض الفلوس بالبريد، وحددت له المبلغ، واتفقت معه أن يخبرك عندما تتصل به أن كل شيء تمام، دون أية تفاصيل لأن الهواتف مراقبة. ولم تُسَلم الطوابع إلا عندما أخبرك فيما بعد أن كل شيء على ما يرام.

خلال الزيارة فوجئت أن السجين فرانسوا الفرنسي الأصل يجلس مع امرأة محجبة، تشبه العرب، بل هي عربية في كل ملامحها.
كان جميع السجناء البيض ينظرون إليه باستغراب، وقد لاحظ ذلك، فثاره عيونهم، وتلفتهم إليه، فجأة هب واقفا صارخا بهم:
- لماذا تنظرون إلي هكذا؟ إنها أمي، هي سعودية وأبي فرنسي، فماذا تريدونني أن أفعل؟ إنها أمي.
لم تعرف أبدا أن فرانسوا من أم سعودية، وقفتَ وهدأتَ من غضبه، قلتَ له:
- كل الاحترام لأمك، لماذا لم تقل لنا أن أمك مسلمة؟
تقدمتَ إليها، وقلتَ لها بالعربية: السلام عليكم. لا تقلقي عليه، سأقف معه.

بعد الزيارة، سألتَ فرانسوا لماذا أخفى عنك حقيقة أن أمه سعودية، فبرر ذلك لأن السجناء البيض عنصريون، لقد كان يحاول ألا يغير موقعه بينهم، وأن يحافظ على تعاملهم معه كواحد منهم.
سألتَه: هل أنت مسيحي؟
فرد عليكَ، أنه ليس مسيحيا، وليس مسلما، هو محتار من يكون، فقد عاش بين أبوين تزوجا في باريس منذ أن كانا طالبين، ثم انفصلا بعد سنوات من هجرتهم للولايات المتحدة، وكان كلا منهما يحاول أن يجذبه نحوه، إلى أن توفي والده.

لقد كانت أمه غنية كما قال لك، لها عدة محلات تجارية، حاولت أكثر من مرة أن تشغله معها، لكنه شعر بالملل، فاتجه للاتجار بالمخدرات على مستوى عال إلى أن ألقي القبض عليه.
سألتَه باستغراب:
- لديك كل هذه الأموال وتتاجر بالمخدرات؟
ضحك وقال:
- ماذا تقول، أنا غبي، لكني كرهت هذه البلد، وعندما أخرج من السجن بعد عامين سأذهب للعيش بفرنسا.
- وهل لديك جنسية أبيك الفرنسية؟
- عندي ثلاث جنسيات: أمريكية، فرنسية، وسعودية عن طريق أمي.
- غريب، مع أنني أعرف أن السعودية عندما تتزوج من عربي لا تستطيع منح ابنها الجنسية السعودية.
- كانت تقول لي أن أهلها هناك لهم صلة بالحكومة.

منذ تلك الحادثة زاد أصدقاؤك بالسجن واحدا، حاولت أن تجذبه نحو بقية المسلمين فلم تستطع، دعوته أن يشارك معكم في رمضان ولو بشكل رمزي لكنه رفض، أراد ألا يفصل نفسه عن الوسط الذي يعيش به، والذي تعود عليه، وعدك أن يتصل به بعد أن تتحررا من السجن، ودعاك لزيارته في مدينة سالم، في ولاية أوريغون حيث تقيم الآن والدته.

ها أنت اليوم في أول أيام شهر رمضان، كنتم ثمانية من المسلمين منهم ثلاثة عرب، وخمسة من السود الأمريكيين، كانت إدارة السجن تقدم لكل سجين فطور اليوم التالي لتكون بدل السحور، وتقدم لكم جميعا حصتكم من الغذاء والعشاء في وقت الإفطار.
كنتم منقسمين إلى قسمين حتى في السجن، فبعضكم كان يريد تناول الإفطار ثم الصلاة، والآخرون كانوا يريدون الصلاة ثم الإفطار لذلك كان كل قسم يقوم بطقوسه وحده.
لم يكن في السجن أجواء رمضانية، ولم يكن رمضان سوى شهر عادي، لم يغير من عادات السجناء، كنت تصوم، وتهرب المواد الغذائية وتبيعها للسجناء، كنت ترى أنك تقوم بعمل شرعي، فكل من كان بمكانك كان سيقوم بذلك دون تردد، كانوا سيشتمونك لو لم تفعل ذلك.
وكان عبد العظيم ذلك المسلم الأسود (ريكي) الذي أصبح ينادى بعبد العظيم بعد أن أسلم يشتري السجاير المهربة، أما الطباخ المسائي علي (جيمي) فقد كان يغضب منك إذا لم تساعده في تأمين حصته من الخبز المهرب، كان يأكل كثيرا، ولأنه يعمل في المساء فقد كان حظه في التهريب قليلا، لذلك كان يطلب منك أن تساعده في توفير الكثير من الأشياء،

وعندما تتوانى كان يذكرك أنه مسلم مثلك وأنك لا تساعده، لكنك علمت لاحقا أنه كان يبيع بعضها ببعض الطوابع، لم تهتم بذلك فأنت تعرف أنه محكوم لمدة عشر سنوات، وبقي له عامان، وأن لا أحد يزوره أو يرسل له فلوسا، لذلك فوضعه صعب كوضعك أنت، أما عصام، وفارس فقد كانا يحثانك أن تطبخ لهما طبختك المشهورة كل يوم مع أنهما يعلمان أن كل ما بها قد تم تهريبه من المطبخ.

فقد كانا يشتركان معك في تحضيرها، كنت تؤمن اللحمة، ثم البندورة، والبصل والفلفل ويقوما بتقطيع كل ذلك وتحضيره، وتطبخه بالمكرويف، كان يستغرق وقتا يصل الساعة، ولأن سجناء كثيرين كانوا يستخدمون المايكرويف للطبخ، فقد كان كل يوم بعد العشاء الرسمي وفي نهاية الأسبوع، طابور طويل على المايكرويف كل ينتظر دوره، وبعد أن تنتهي من إعداد أكلتك المفضلة كنتَ تذهب أنت وفارس، وعصام وأحيانا جورج للساحة تحت إحدى الشجرات لتناول الطعام كأنكم على شط أحد البحار، ثم تبدأون بالصياح عندما يبدأ النقاش عن الحرب في سوريا، والعراق.

للسجن قوانينه، وهي باختصار: كل ما تستطيع انتزاعه من السجان فهو حق شرعي لك، فالسجين الأبيض (السيد براون) ذو الشعر الأبيض الذي كان يعد نفسه رجل الدين المسيحي الأول في السجن، ولا يترك سجينا إلا ويحاول أن يهديه للمسيحية فقد كان يطلب منك أن توفر له البيض كل أسبوع، وعندما كنت تعتذر لكثرة المشترين، كان يغضب منك، ويتوجه ليشتريها من الطباخ تشارلي. أما اليهودي الوحيد بالسجن، الرجل العجوز (سلمون) فقد كان يشتري كل شيء عن طريق مسؤول الطباخين الأبيض العنصري الذي كان بناء عليه يتضامن مع اليهود في إسرائيل، ويناقشك أحيانا:

- لماذا تقتلون اليهود؟

وعبثا حاولت أن تشرح له أن الذي يحدث هو العكس.

كان النقاش بينكما يمتد لفترة طويلة ويشارك فيها كل الطباخين، كنت الوحيد الذي يقف في وجههم، كأنهم من مدرسة واحدة، كانوا يرون فيك المهاجر الذي جاء يغتصب منهم النعمة التي أنعم بها الله عليهم.

- حتى في السجن جئت تنافسنا، ألم يكفك آبار النفط؟
- آبار النفط؟ وهل هي لي؟
- إنها لجماعتك، أنا أعتقد أنك تملك بئرا من تلك الآبار.

في الختام كانوا يسكتون مقابل أن تقدم لهم بعض الخضار مجانا، فقد كنت المسيطر عليها.

كان أكثر الأشياء طلبا الفلفل الأخضر الحلو، كان ذلك مثل الذهب الأصفر خارج السجن، كل سجين يريد عددا أكبر منها لكن كيف والزبائن على الدور، كان بعضهم يدفع لك مسبقا كي يحجز حبات من الفلفل الأخضر ويكون محظوظا لو حصل على حبتين، كلهم كانوا يعشقون

الفلفل الحلو الذي كان أحيانا بلون أحمر، وأصفر، لكنهم كانوا يفضلون الأخضر، ويستخدمونه في كل مأكولاتهم.

لذلك كنت ترضيهم جميعا وتحسب حساب كل الطباخين ليكفوا عن ملاحقتك، وكنت تحرص أن تعطي نائب الطباخ تشارلي قصير القامة عددا أكبر فقد كان أكثرهم دعما لك، سجين محكوم ثلاث عشرة سنة، وبقي له سبع سنوات، تزوره عمته مرة في السنة لا غير. عندما يكون وحده بعيدا عن كبير الطباخين، كنتَ تشعر أنه ضحية أهله، انفصل أبوه عن أمه وهو في العاشرة، طردته أمه من البيت وهو في الرابعة عشرة ليلتحق بوالده لكن والده غادر الولاية التي كان يسكن فيها، فوجد نفسه في عالم المخدرات، حتى صار أحد المهربين إلى أن ألقي القبض عليه.

(٢٨)

صباح هذا اليوم كنت تجلس في غرفتك، فإذا بالسجان المناوب يناديك عبر مكبر الصوت:
- نعيم احضر حالا إلى المطبخ.
ذهبت مسرعا، لا تعرف ما الخبر، كان كل الطباخين هناك، وصديقك فرناندو
سألت ما الخبر، فقال لك تشارلي:
- بعض السجانين يقيمون احتفالا لهم ولعائلاتهم في أحد المتنزهات القريبة، ويريدون أن نحضر لهم الأكل.
نظرت إليه مستغربا،
- يريدون أكلهم من السجن؟
نظر إليك، وقال ساخرا:
- اخرس، أعرف ما يدور برأسك. ما الذي يضيرك ذلك؟ هل أنت من يدفع ثمنه؟ هل تستطيع أن تقول لهم لا؟ هل تريد أن تصبح واشيا عليهم؟ إنها أموال للنهب.
هناك منهم من يأخذ أكلا لبيته من هنا. ثم ألا تريد الاستفادة الآن دبر حالك سيفتحون لك الثلاجات على مصراعيها.
حضر أحد السجانين الطباخين، وشرح لكم ما يريد، وفتح لكم الثلاجات لتأخذوا ما تريدون.
أخرجتم من الثلاجات أكلا لمئة شخص مع أنكم ستحضرون أكلا لعشرين فقط.

بعد ساعتين كان الأكل الملوكي جاهزا، والسلطات جاهزة، حملتموها للسيارة خارج بوابة السجن، وعدتم نافشين ريشكم فمهنتكم في السجن أكثر المهن التي يطمح إليها سجين.

لم تكن الأمور تسير دوما كما ترغب ففي أحد الأيام مرض السجان المناوب، فحضر طباخ مسؤول جديد ليحل محله حتى يعود الأول لعمله.
كان أسوأ سجان تعرفه، كانت العنصرية تشع من عينيه. أول شيء كان يعمله عندما يفتح الثلاجات، يقرر لكل منكم ما يخرجه من الثلاجة، كان يسجل كل شيء تخرجونه، وبعد ذلك يغلق الباب الخلفي للمطبخ بالجنازير، ثم يقول لكم جميعا:
- اسمعوا ممنوع أي واحد يخرج من المطبخ إلا بعد أن يمر علي حتى لو كان ذاهبا للحمام.
قالوا لك: هذا سجان لئيم لذلك لا تحاول معه.
كان ينظر إليك ويسألك:
- لماذا تقطعون رؤوس الناس؟
- أي ناس وعمن تتحدث؟؟
- كأنك لا تعرف ألست مسلما؟
- نعم لكني هنا في السجن.

لم يضحك، لكنه قال:
- أنتم المسلمون تقتلون غير المسلمين وتقطعون رؤوسهم مثل داعش.
- هؤلاء لا يمثلوننا، وأنتم الذين تدعمونهم.
- يبدو أنك إرهابي مثلهم.
- لا أسمح لك بذلك.
غضب وقال:
- عد لغرفتك فأنت مجاز ما دمتُ هنا.
تركتَ العمل وعدت لغرفتك غاضبا.
بعد ساعات ذهبت للسجان المناوب، وطلبت منه نموذجا لطلب شكوى، لتشكو هذا السجان لإدارة السجون. بعد أن أخذت الطلب التقيت مع صديقك جو ابن الثمانين عاما، وسألته أن يساعدك في تقديم الطلب.
نظر إليك وقال:
- إن كنت تريد تقديم شكوى عن سجان، أنصحك ألا تفعل ذلك.
سألته:
- لماذا؟
- لأنهم لن يستمعوا لشكواك، فكل السجانين هنا يعملون كفريق ومستعدون أن يشهدوا ضدك، وهكذا ستخسر الشكوى، ثم بعد ذلك سينغصون عليك عيشتك. أنصحك أن تتروى.
أخذت الطلب وذهبت لتسمع نفس النصيحة من سجين آخر.
أنت سجين تختلف عن كل السجناء، مسلم وعربي، لن يسمعوا شكواك حتى لو كنت ملاكا، لا تكترث لهذا السجان، فهو هنا ليومين لا غير.

(٢٩)

ها أنت على وشك التحرر من السجن لم يبق لك إلا عدة شهور، فرحك ممزوج بالخوف، الخوف من المستقبل الذي تحن إليه، تنتظر لحظة خروجك يوما بيوم، تعد الساعات، الدقائق، الثواني، تحلم بذلك اليوم، وأنت نائم، وأنت يقظ حتى خلال عملك بالمطبخ.
تتمنى لو كان يوم تحررك في مكان يمكنك القفز إليه واختصار الزمن، تتمنى لو كنت مكان أهل الكهف لتنام ما بقي لك من شهور لتجد نفسك خارج السجن، في المستقبل السعيد.
لماذا تطول الشهور عندما نريدها أن تمر مسرعة، بينما لحظات فرحنا تمر كلمح البصر؟
لم تعد تقرأ كثيرا رغم أنك عزمت على الانشغال بالقراءة كي لا تشعر بالقلق، كل شيء يقلقك، الأولاد؟ كيف هم؟ كيف ستكون حنان؟
ما كان يقلقك أكثر أنك لن تراهم فور خروجك من السجن، فأمامك ستة شهور ستكون في مركز تأهيل السجناء (هاف وي هاوس)، وبعدها ثلاث سنوات تحت المراقبة، لا تعرف متى يسمحون لك بالسفر خلالها.
ماذا ستفعل؟ أية مهنة ستزاول؟ ضاع منك كل شيء، ستعود من نقطة الصفر، ستعمل أجيرا من جديد، ستسمع أوامر هذا وذاك.
لا بيت لك، لا سيارة!!
ليتهم يسمحون لك بالسفر النهائي!!
انهمكت بلعب الورق مع صديقك فارس، وبعض الأصدقاء، لعبة سبيد المشهورة بالسجن، تشبه لعبة الترنيب نوعا ما، كنت تشعر أنها تساعدك في تخطي حاجز الوقت الذي لم يعد يعنيك في شيء، أصبحت تهرب اللحوم والخضار، والبيض مجانا، لم يعد يهمك شيء.
وعندما أعلنوا عن مسابقة في لعبة (السبيد)، شاركت بها، وهي لعبة رباعية يجب أن تختار شريكا لك، فاخترت أحد السجناء من أصول مكسيكية يدعى (جوميز)، لأنه ماهر مثلك، واستطعتما أن تصلا للمرحلة النهائية حيث كان خصمكما شابان من السود، انتصرتما في المرة الأولى، وانتصرا في الثانية، لذلك بدأتم في المرحلة الحاسمة، كانت الأرقام قريبة من بعضها، كل منكم كان على أعصابه، وكان شريكك جوميز الأكثر توترا، لا يريد أن يهزم، كان ينظر إليك بغضب كلما لعبت بعكس ما توقع، وفي اللحظة الأخيرة، فاز الشابان المنافسان، فغضب جوميز، ورمى الورق على الأرض وغادر القاعة وسط ضحك، وسخرية المتفرجين.
حصلتما على المرتبة الثانية في كل السجن، يا لهذا الفوز العظيم، وكانت جائزتكما علبة كولا لكل منكما، وعلبة حلوى صغيرة، حملتَها جميعا وقدمتَها لجوميز في غرفته كي تهدأ من غضبه، فضحك، واعتذر وصافحك بحرارة.

في أحد الأيام تذكره جيدا، كان الوقت صباحا حوالي الساعة التاسعة، كنت تجلس في قاعة المطبخ مع بعض الشباب، فقد كانت قاعة الأكل هي القاعة التي يتجمع فيها السجناء لمشاهدة التلفزيون، والتسلية فهي القاعة الأساسية، وكان معظم السجناء في أعمالهم، فجأة شاهدت عشرات السجانين يدخلون السجن، إنه تفتيش مفاجئ، فعندما يهاجمون السجن بهذه الطريقة فهذا يعني أن تفتيشا دقيقا للسجن سيتم الآن، طلبوا بمكبر الصوت من كافة السجناء الموجودين بالبناية التوجة لقاعة الرياضة الداخلية، وطُلب من العاملين في المطبخ البقاء في قاعة الأكل المتصلة بالمطبخ، وأغلقوا على الفور كل الأبواب المؤدية للعمارة الرئيسية للسجن، ثم طلبوا كل من يتواجد في مكان عمله بالعودة فورا والتجمع في غرفة الرياضة، أكثر من أربعمئة سجين تم تجميعهم في قاعة واحدة. وتفرق السجانون على الفور حسبما حدد لهم، كل مجموعة لقسم. أغلقوا عليكم باب القاعات وانطلقوا بعملهم، كان كل منكم على أعصابه، يتمنى ألا يجدوا شيئا في غرفته.
بعد ساعة كان أحد السجانين يدخل إلى قاعة المطبخ ويقدم للسجان المسؤول أكياسا مليئة بالبصل، واللحمة، والبندورة، والبيض.
نظر السجان إليكم جميعا وسألكم:
- ما هذا؟
لم ينطق أحد منكم بكلمة، فماذا تقولون؟
سألكم:
- هل هذه لكم؟
لا جواب؟
- أعرف أنكم ستنكرون، فمن الذي أخرجها من المطبخ؟
خذوها الآن، وبعد انتهاء التفتيش سيكون لي معكم كلام آخر؟
هل تفضحوني؟ تريدونهم أن يتهموني أنني أتساهل معكم، ولا أقوم بمراقبتكم؟

كل واحد منكم كان ينظر للآخر، وبعد أن ذهب السجان لمكتبه قال لك تشارلي:
- نعيم هذه معظمها منك أنت الذي يسرق معظمها!
- صحيح؟ هاهاها، يعني أنت رجل محترم لا تأخذ شيئا؟
فقال كبير الطباخين:
- لقد سبقتَنا بكل شيء، أنتم في باكستان تجيدون فن التهريب.
- كم مرة قلت لك أنني لست من باكستان، أنا من فلسطين (بلاستاين)
- بلاستاين، باكستان، أفغانستان... ما الفرق، كلكم من نفس المنطقة.
- غبي لا تفهم أن باكستان تبعد عن فلسطين آلاف الأميال، ولغتها تختلف عنا.
احتد النقاش، فصدح مكبر الصوت ينادي اسمك أن تذهب لمكتب السجان المناوب الذي كان يسمى (بَيِل). تركتهم دون أن تودعهم، لم تعرف أن هذه هي المرة الأخيرة التي يسمعون اسمك فيها عبر مكبر الصوت، وأن منافسهم الأول قد ولى زمنه.

خرجتَ من قاعة الأكل لتجد عشرات الأكياس مرمية على الأرض، سجاير، تبغ، وأشياء أخرى ممنوعة، وعندما وصلت رأيت بعض السجانين، ونزيل غرفتك جورج.
قالوا لك على الفور أنك ستذهب للزنزانه!!
- زنزانة؟؟
- نعم وجدنا في غرفتك هاتفا خلويا.
- ليس عندي هاتف خلوي.
- وجدناه في غرفتك، وجورج يقول أنه ليس له.
- وليس لي طبعا، أنا سأغادر السجن بعد شهور فلماذا أُهرِّب هاتفا ثم لم يأت لزيارتي أحد منذ شهور تقريبا.
- إما أن يعترف أحدكما أنه له، أو أن تعترفا من هو صاحبه، أو ستذهبان كلاكما للزنزانة.

إلى الزنزانة إذن.

تم تكبيل يدي كل منكما، وتم نقلكما للزنزانة في السجن المجاور الأعلى أمنيا، حيث الإجراءات هناك أشد وأقسى، والسجانون أكثر شراسة في معاملة السجناء.

دخلت مع جورج من باب لباب، ومن تفتيش لتفتيش، كان السجانون هناك ينظرون إليكما بشراسة، فأنتما القادمان من سجن كأنه مكان للنزهة، لم تلتزما بقوانينه لذلك هنا سيتم الانتقام منكما. بعد يومين فوجئت بنقلك لسجن جديد في جنوب ولاية تكساس اسمه (لاتونا).
سجن يقع في منطقة جبلية حيث الجبال تحيط بالسجن، والحرارة العالية.

عندما دخلت زنزانتك، وجدت فيها سجينا أسود اللون ضخم الجثة، كان مستلقيا في السرير الأعلى، سررت جدا أن السرير الأسفل كان فارغا، فأنت تكره السرير العلوي لصعوبة الصعود إليه.
عندما رآك رحب بك،
- هاي سلي (سلي: يعني نزيلي في الزنزانة)
- هاي
- غريب أنك في السرير العلوي.
- هاهاها وهل تعتقد أن السرير السفلي أفضل؟ سنرى
اقتربتَ من السرير فرأيت أن الحمام بجانب السرير السفلي، وهو غير محاط بأي شيء مما يعني أنه عندما يستخدم الحمام سيكون أمامك، ورائحة خرائه ستكون على قدم واحد منك،

فإن وضعت رأسك في الاتجاه المعاكس سيكون في وجهك، وعليك عندما يفعلها أن تغطي رأسك بالبطانية.
زنزانة صغيرة يصعب الحركة فيها فإن تحرك هو وما أكثر ما تحرك ستلتزم سريرك، إنها زنزانة فعلا، ليس معك كتاب، ولا جريدة ولا دفتر، ولا قلم، إذن ستعد للمليون قبل أن يأتي المساء.

لم يقل لك السجانون عندما أحضروك إلى هنا كم يوما ستبقى في الزنزانة، لم يعد يهم كثيرا فقد بقي لك ثلاثة أشهر وبعدها ستتحرر من السجن، ستكون أيامك صعبة هنا.
سألك بعد فترة:
- لماذا أنت هنا؟
- اتهموني بحيازة هاتف خلوي؟
- هل ضبطوه معك؟
- لا لكنهم ضبطوه في غرفتي، كان تحت السرير.
ضحك وقال:
- هل أنتم أغبياء؟ تخبئونه تحت السرير؟ هل اعترف عليك أحد؟
- لا لا أحد اعترف لمن الهاتف.

كنتَ تغلي غضبا، تريد أن تعرف من وضع الهاتف تحت سريرك، أهو جورج؟ لكنه بالكاد كان يتصل بأحد، فلماذا يغامر؟ كان أمام عينك ليل نهار، لا بد أن أحدا رماه في غرفتنا عندما شاهد السجانين يدخلون السجن للتفتيش. لكن من؟ هل هو (تيموثي) أراد الانتقام مني؟ لكنه في قسم آخر، واعتذر لي عما بدر منه بعد انتهاء فترة عزله، من هو الحيوان الذي حول حياتي لجحيم؟
ما الذي أفعله الآن؟
لا عمل لا كتاب، لا هاتف، لا تلفزيون، لا رسالة، لا قلم!!!
يبدو أنك كنتَ منعما قبل ذلك، كأنك اليوم تدخل السجن من جديد.
حاولتَ النوم لعلك تضيع وقتك، لكن هيهات، فالأفكار تهاجمك من كل مكان.
عندما كنت في سجن بئر السبع في فلسطين المحتلة قبل حوالي ثلاثين عاما، كنتَ في زنزانة لمدة يوم واحد، كنت في قمة عنفوانك، كنت تشعر أنك تقاوم حتى وأنت بين الجدران، لكنك هنا تشعر أنك تموت، تعد الثواني بتأن كي لا تبدأ العد من جديد.
هل أنت سعيد اليوم؟
عندما جئتَ إلى الولايات المتحدة كنت تقول أنك ستعود بعد أن تنهي دراستك، وبعد سنتين، قررت أن تلتحق بسوق العمل، والتجارة، وطلقت الدراسة، كنت تقول أنك ستوفر بعض المال ثم تعود إلى أرض الوطن، وكل ما امتدت بك السنون كنت تؤجل وقت العودة، حتى وقعت بالفخ.

ما الذي تفكر فيه الآن، وأنت على وشك التحرر؟ هل ستبدأ من جديد بعد أن خسرت كل شيء؟ وكم سنة ستحتاج لتعوض ما خسرته؟
هاهاها أتبدأ من جديد؟ كأني بك تغني (رسالة من تحت الماء) لعبد الحليم حافظ:
(لو أني أعرف خاتمتي، ما كنت بدأت، ما كنت بدأت).

سألتَ نزيل زنزانتك في السرير الأعلى؟ ألديك كتاب أو جريدة؟
لا ليس لدي كتاب، لكن هناك سجين في الزنزانة المجاورة مشترك في الجريدة تصله كل يوم أو يومين وبعد أن يقرأها يرسلها لنا ثم نقوم نحن بعد ساعات بإرسالها للزنزانة المجاورة.
انتظر حتى الصباح.
فجأة سمعت ضربا على الحائط، سألته عن سبب هذا الضرب فقال لك أن السجين في الزنزانة الثانية يريد التحدث معنا، نزل عن السرير بعد أن رد عليه بعدة ضربات على الحائط اقترب من باب الزنزانة استلقى على الأرض، وضع رأسه بجانب الباب ومن الفتحة التي في أسفل الباب كان يقدم فمه ويتحدث.
- هاي جم
- هل جاءك ضيف جديد؟
- نعم من الكامب في ليفنوورث.
- كان محظوظا أنه هناك، ما الذي جاء به؟
- لقد وجدوا هاتفا خلويا في غرفته.
- مان، هاتف خلوي؟ أتمنى لو أنني هناك في الكامب. لن أقوم بأي خرق للقانون.
كنت تستمع للحديث دون أن تقول شيئا، فمذا عساك أن تقول؟ لن يصدقك أحد لذلك الأفضل أن تصمت، وماذا يهم ما يقولون، لن يغير ذلك من الموضوع شيئا.
سأله:
- هل لديك جريدة قديمة، يريد أن يقرأ يشعر بالملل.
- حقا؟؟ ما زال الوقت مبكرا للشعور بالملل، فأنا هنا منذ خمسة أشهر.
اقشعر بدنك وأنت تسمع قوله.
خمسة أشهر، يا إلهي ما هذا الوضع الذي وُضعت به؟

انتهى الحوار، وقف نزيل زنزانتك وسألك:
- هل أنت جاهز لسحب الجريدة.
- سحبها؟ من أين؟
- سيقوم جارنا برمي الجريدة من تحت الباب باتجاه زنزانتنا قدر ما يستطيع، ونحن علينا سحبها بعد أن نصيدها. هل صدت سمكا في حياتك؟

- كلا لم أمارس صيد السمك ولو مرة واحدة.
- إذن ستمارسها اليوم، هل أنت جاهز؟ تعال أصنع لك صنارتك الخاصة.

حمل فرشتك وبدأ يبحث عن الخيط فيها ثم بدأ يفكه بالتدريج، وفعل نفس الشيء مع فرشته، ربط الخيطين معا، ثم أحضر علبة معجون أسنان، فقطع قسمها العلوي حيث فتحة العلبة، فربطها بالخيط وترك مسافة قصيرة من الخيط أسفل العلبة، بعد ذلك أحضر من تحت فرشته، سلكا معدنيا قصيرا حادا قال لك أنه من مجلة كانت في الغرفة، فربط هذا السلك القصير الحاد بالخيط ربطا محكما وأصبح مثل الصنارة.

كي تسحب الجريدة من مردوان السجن بعد أن يخرجها من تحت باب زنزانته سجين آخر عليك صيدها كما تصيد سمكة في بحيرة، أو نهر ثم تسحبها حتى تصبح في متناول يدك.
وبدأ يشرح لك ذلك وأنت تصغي بإعجاب. هؤلاء السجناء لديهم أفكار يمكن التعلم منها.

استلقيتَ على بطنك على الأرض، واقتربت من فتحة الباب، نظرت من الفتحة التي يصل ارتفاعها حوالي عشر سنتمترات، عاينت مكان الجريدة ثم قذفت الخيط مع الصنارة بعد أن ربطت بداية الخيط بيدك اليسرى وحاولت أن تسحب الخيط لتضرب الصنارة بالجريدة فتشبك برأسها الحاد، لكن الخيط ذهب بعيدا عن الجريدة، سحبت الخيط وجربت من جديد لكن الخيط كان خفيفا فلم يذهب بعيدا، قال لك صاحبك في الزنزانة:
- يبدو أنك تحتاج لمزيد من التدريب لصيد السمك، تذكر أن الصياد قد يصطاد سمكة من أول مرة، وقد ينتظر نصف نهار قبل أن يصطاد سمكة واحدة. لذلك كرر المحاولة ولا تيأس.
كررت المحاولة عشر مرات إلى أن ضربت الصنارة في وسط الجريدة وصار بإمكانك أن تسحبها.
قلت له:
- لقد صدتها.
بدأت تسحبها رويدا رويدا خوفا من انفلاتها، فالصنارة صغيرة الحجم، والجريدة كبيرة، بعد أن أصبحت الجريدة قريبة من الباب لكن يصعب مد اليد لسحبها
فلتت الصنارة.
اللعنة على الصنارة، اشتطت غضبا، وتمنيت لو تستطيع تحطيم هذا الباب، والخروج منه.
لكن كيف وأنت لا تستطيع كسر قفل صغير.
شعر صاحبك الأسود بغضبك فانفجر ضاحكا، وبدأ يسخر منك:
- أنتم القادمون من الكامب سجناء نواعم لا تستطيعون المواجهة، صبركم ينفذ بسرعة لأنكم لم تواجهوا السجن الحقيقي.

يكفي تذمرا، أنت في السجن، عليك أن تتعلم المثابرة هنا، لن تنتصر على السجان بهذا الوضع، ماذا لو أمضيت هنا سنة كاملة؟ كرر المحاولة بصمت، وهدوء، المتعة يا صديق الزنزانة أن تنتصر بعد عشرات المحاولات.
لماذا الغضب؟ ماذا وراؤك؟ ستمضي ساعات وأياما وأنت مستلق على السرير تهز رأسك طربا لأغان تستعيدها في ذاكرتك كنت قد سمعتها منذ عشرين سنة.
لم يمض وقت طويل حتى كانت الجريدة في يديك، أخذتها وذهبت إلى سريرك وبدأت تلتهم أخبارها، لم يكن يهمك ما بها من أخبار، أو قصص، أو خرافات، أو حتى إعلانات، كنت تلتهم كل حرف فيها حتى أسماء المحررين وعنوان الجريدة. فلم يكن أمامك شيء آخر تفعله، يبدو أن السجن ضروري كي يتعلم الناس قيمة القراءة.
يا إلهي ما هذا النصر المبين الذي أنجزته هذا اليوم؟ أنت اليوم أمهر صياد في العالم.
كنتَ تتمنى لو كان عندك قلم وورقة لتكتب لحنان عن نصرك المؤزر خلف القضبان.

(٣٠)

الليلة الأخيرة في السجن، ثلاثة أشهر في الزنزانة، كنت فرحا جدا، ولكنك قلق بعض الشيء، طوال فترة السجن كنت تنتظر تلك اللحظة، وصباح ذلك اليوم، كنت تحن للمستقبل، الذي يبدأ منذ أن تطأ قدمك خارج أسوار هذا السجن اللعين الذي لم تر منه غير زنزانتك.
كنت قلقا جدا، فماذا ستفعل الآن؟ أين ستعمل بعد أن خسرت كل شيء؟ أين ستنام وليس لديك بيت، وليس في حسابك في السجن سوى ٤٥ دولارا؟

أي مستقبل ينتظرك الآن؟ ولا يزال أمامك ثلاث سنوات ونصف قبل أن تعود للوطن.
حاولتَ كل جهدك أن تنام فكل ثانية تمر بصعوبة، كأنها لا تريد أن تتحرك.
كل السجناء نيام، وأنت تتقلب على السرير، تفكر بالأولاد، وحنان، تفكر كيف ستمضي وقتك خلال فترة المراقبة داخل دار التأهيل التي يتم تحويل كل سجين إليها.
قبل الخامسة صباحا، وقبل أن يتم العدد جاءك السجان يطلب منك أن تحمل حقيبتك وتلحق به.
حقيبة؟ أية حقيبة؟ لقد تركتَ كل لديك لشريك الزنزانة الأبيض الجديد الذي حل محل السابق منذ شهر.
خرجت بملابسك التي تلبسها.
كان ينتظرك خارج السجن سجين مثلك أُسندت إليه مهمة نقلك للمحطة المركزية للباصات.
وقعتَ على الأوراق المطلوبة، وخرجت لا تلوي على شيء، عندما وطأت قدمك أرض الحرية شعرت براحة نفسية.
كأن للهواء خارج القضبان طعما آخر.
ها أنت تدخل عالم المستقبل الذي كنت تحلم به، وتحن إليه. هل جاهز أنت لهذا العالم الجديد؟
في السيارة كنت تدقق النظر في الجبال التي تحيط بالمنطقة، وبالسماء، الصافية.
كنت تغلي كماء فوق صفيح ساخن شوقا لحنان، والأولاد.
لو أن حمدان جاء يستقبلك هنا لاستخدمت الآن هاتفه النقال واتصلت بهم في القدس، لكن كيف وما لديك مبلغ زهيد ستحتاج كل سنت فيه.
صبرت كل هذه السنوات، فلماذا لا تصبر يوما إضافيا.

نصف ساعة كدهر بأكمله، أنت الآن في محطة الباصات المركزية، أول شيء بحثت عنه الهاتف العمومي، فأمامك ساعتان كاملتان قبل أن يتحرك الباص الذي ستستقله باتجاه ولايتك، تلك الولاية المشؤومة التي كلما تذكرتها تذكرت سجنك، وغياب العائلة عنك.
وجدته لم يكن الهاتف مشغولا، فكل شخص الآن لديه هاتفه، لم يعد أحد يستخدم الهاتف العمومي إلا الذين فقدوا هواتفهم، والمتسكعين أمثالك الخارجين من السجن.
ذهبتَ تبحث عن نقود معدنية تستبدل بها بعض الدولارات فالاتصال من الهاتف العمومي أصبح مكلفا جدا.
كان اتصالك الأول بحمدان، انتظرت طويلا قبل أن يفتح السماعة:
وما أن سمعت صوته حتى قلت له:
السلام عليكم حمدان.
وجاءك الصوت عبر السماعة مجلجلا:
- وعليك السلام أحلى نعيم في البلد، مليون الحمد لله على سلامتك.
آخ يا نعيم قلت لك أن أحضر لإحضارك فرفضت.
- لا أريد أن أتعبك يا حمدان، المسافة بعيدة جدا، فحضورك إلى سجن لاتونا يستغرق أكثر من عشرين ساعة سواقة متواصلة وهذا يفترض حضورك قبل ذلك بيومين، ثم علينا العودة والوصول بالوقت المحدد لدار التأهيل، ليس لدي وقت طويل، لكن لا تقلق سأراك في محطة الباصات في منسوتا غدا ظهرا، المحطة الموجودة في وسط البلد. ومن هناك سنذهب للدار حيث يجب أمضي ستة أشهر كما أخبرتك.

قبل أن تكمل قال لك:
- قبل قليل اتصلت بي زوجتك تسأل عنك، انتظر قليلا دعني أوصلك بها.
- لا أريد أن أشغلك يا حمدان.
- أتشغلني؟ هذا واجبي أخي نعيم.
كان قلبك يخفق كثيرا، ستسمع صوتهم الآن، أكثر من ثلاثة أشهر ولم تسمع صوت أحد منهم، فتح الخط: بادرتك:
- ألو نعيم حبيبي.
- ألو حنان.
حبستَ دمعتك محاولا التخفيف من انفعالك كي تخرج الكلمات من فمك مفهومة، وكي تستطيع التخفيف عنها فقد سبقتك للبكاء.
- كيفك نعيم، شو صار فيك، يلعن أبوهم وأبو السجن. الحمد لله على سلامتك.
كانت تقولها لك وصوت نحيبها يرن في أذنك. كنتَ تتمنى لو تقفز من الهاتف فتضمها لصدرك، قلت لها بعد أن تماسكت قليلا:

- أنا بخير، تحررت أخيرا، أنا في محطة الباصات متوجها إلى منسوتا، أعطوني تذكرة بالباص من السجن، سأمر عبر محطة ميسوري. غدا سأكون في مركز التأهيل في روزفيل ومن هناك سيكون بإمكاني الاتصال بك باستمرار.
كيف حال الأولاد، اشتقت لهم، هل صاروا شبابا؟
- ينتظران خلفي يتشاجران أيهما سيتحدث معك أولا.
سأفتح السماعة ليسمعا معا ويتحدثان بالدور.
انطلق صوت صابر:
- بابا الحمد لله على سلامتك.
ياه ها هو صوته يرن في أذنك من جديد، تغير صوته بعض الشيء، ذهب صوت الطفولة وجاء صوت الشباب.
- الله يسلمك صابر، كيفك يا ولدي كيف أصبحت؟
لم يكمل صابر، صاروا كلهم يتحدثون معا، لا أحد يريد انتظار الدور، ما الذي يمكنك أن تقول لهم؟ ألديك بعض الصبر كي تطلب منهم أن يتحدثوا بالدور، شوقك لهم أضعف موقفك أمامهم فتركتهم يتحدثون ويسألون، لم تهتم بأي شيء كنت غارقا في سماع أصواتهم كأنها موسيقى لآلات متنوعة، كل لها إيقاعها، وعازفها الذي يعزف وحده، لم تعرف من قبل أن تضارب العازفين ينتج لحنا يطرب القلوب ويدغدغ مشاعر الآباء المغتربين.

أغلقت السماعة، وصوتهم جميعا ما زال صداه يرن في أذنيك، عندما لا تراهم العين يصبح للصوت رنين مختلف تماما، يتحول لموسيقى تتجدد مع كل اتصال، وتصبح الذكريات أجمل فلم لا تمل من مشاهدته كل يوم، ويصبح الحنين إلى المستقبل أجمل لوحاتك.

جلستَ في أحد المقاعد تنتظر موعد إقلاع الباص جففتَ دموعك وسط تلصص بعض الركاب عليك، أسندت ظهرك للخلف، أغلقت عينيك كأنك تغط في سبات لكنك كنت تستعيد صفحات من الماضي، وأخرى مثلها لمشاهد تتمناها في المستقبل.

ها هو صابر يكبر أمام عينيك، ها هو أمامك ببذلته البيضاء، اليوم حفل زفافه، وأنت تقف مع حنان تستقبل المحتفلين معكما.
اليوم ستسلمه الراية، راية المستقبل، لا يحمل الراية إلا من نزفه لعروسه.
كان صابر يجلس مع عروسه أمام المدعوين في قمة بهائه، بينما أنت تهمس لحنان دون أن تدير وجهك إليها لأنك تتابع الحضور:
- اليوم بدء عهد جديد يا حنان، اليوم تتشكل أسرة جديدة، لنا فهل يزيد العبء علينا أم يصبح دورنا دور المتفرج في قاعة السينما.

كان عدد المدعوين يزيد السرور في قلبك، اليوم فرحك أنت، أنت أكثر الناس فرحا، أكثر من العريس نفسه، هو فرح بعروسه، فرح بنفسه، أما أنت ففرح بمستقبل أنت بنيته بعرق جبينك، وسنوات أمضيتها خلف القضبان.

ما أجمل أن تستعيد ذكرياتك القديمة لكن الأجمل منها أن ترسم لوحة المستقبل وصورا ومشاهد من مستقبل تحلم به، وتعيش فيه لحظات سعيدة، في الأولى أنت تستعيد ذكرياتك كما هي، بلونها الأسود، والأبيض، لا تغير شيئا فيها، فيما اقتحام المستقبل يكون بأجمل الألوان، فأنت هناك يمكنك أن تلون مستقبلك كما تشاء، تحاول استغلال كل التقنيات التكنولوجية لتتناسب وأحلامك، تصنع مستقبلك ما فوق الأبعاد الثلاثية، تصنعه بأبعاد مشاعرك، وأحلامك، وتمنياتك، وعزمك، فيكون في قمة الجمال، والبهاء، وروعة الألوان التي دقتها بعدد لا متناه من النقط في السنتمتر الواحد. فتكون في قمة روعتها. أنت في مستقبلك، أنت في وسط المستقبل الذي تحلم به وتحن إليه.

أنت ترقص مع أولادك في حفل زفاف صابر، كل الأهل، والأقارب، معك، حنان تشاركك فرحتك، يدها بيدك كأنكما في لحظة سكر، هذه اللحظة لولا حنان لم تكن، لولا صبرها وجهودها لم تكن، إنها الأحق بأن تهديها هذه اللحظة.

اللعنة، ها أنت تعود من مستقبلك القريب، بعد أن أعلن مكبر الصوت أكثر من مرة:
- على المسافرين على متن الباص المتجه إلى ميسوري الاستعداد للسفر.

(٣١)

تحررتَ مع وقف التنفيذ، أنت خارج السجن، وفي الولاية التي كنت تقيم بها، بل في نفس المنطقة التي كنتَ يوما تعمل فيها، لكنك مقيد الحركة، أنت في مركز لتأهيل الخارجين من السجن، لم تكن مجبرا للقدوم هنا، لكنهم يخيرون السجين بين أن يقضي في مركز التأهيل آخر شهور من حكمه فيه قد تصل لستة أشهر، أو أن يقضيها في السجن فيتحرر للبيت مباشرة.
في مركز التأهيل يوهمونك أنهم يساعدونك، فهذه مراكز تجارية خاصة مرتبطة بالسجون مهمتها الربح لقاء تقييد حركتك وتحديد برنامجك اليومي، أنت مجبر خلال الأسبوعين الأولين أن تستمع لمحاضرات تشرح لك كيف تواجه الناس، كيف تبحث عن عمل، وبعد أسبوعين تبدأ البحث عن عمل، وعندما تجده تستطيع الخروج للعمل والعودة للمركز بعد انتهاء الدوام.
يسمحون لك بالزيارات مرة كل يوم لكن عليك أن تحدد في طلب خاص مسبقا العنوان الذي ستزوره، واسم الشخص الذي تنوي زيارته وقرابته معك، وهل سبق وأن أدين بتهمة، ويطلبون منك تحديد الطريق للبيت الذي تنوي زيارته. إن كان في الباص يجب تحديد رقم الباص، وتوقيت صعودك إليه، وإن كان في سيارة صديق يجب تحديد رقم السيارة، واسم سائقها، استفسارات تشعر معها أن السجن كان أهون من هذا المركز.

لكنك ترى الناس، تشعر أنك حر، تتصل بمن تشاء، لا حد لعدد ساعات الاتصال.
كنت تتوقع زوارا أكثر وأنت هناك، لكنك فوجئت أن الناس تغيرت من حولك، هل فعلا تغيروا أم أنت الذي كنتَ لا تعرف كيف تصنف أصدقاءك؟ عندما سألت حمدان في إحدى الزيارات عن صديقك حسين، ضحك وقال لك:
- هرب من البلد، وبعد فترة سمعنا أنه التحق بداعش.
- معقول، هذا المولود بأمريكا التحق بداعش؟ وكيف أخبار عماد؟
- في العامين الأخيرين تغير كثيرا أصبحت ذقنه طول شبر، وصار يهلوس كأنه مفتي الأزهر، في أحد الأيام سمعت أنه جمع كل صور العائلة في بيت أهله بمن فيه أمه وأبيه، ورماهم في الزبالة، لأن الصور حرام، فثارت ثائرة والده، وطرده من البيت.
- واو ألهذا الحد؟
- كل هذا من الشبكة والفيديوهات التي تبثها مشبعة بالتكفير، والكراهية.
- وماذا عن سعيد؟
- سعيد طلق زوجته وانتقل لكاليفورنيا.
- وزوجته؟

- ها هي تبحث عن عريس. هل نخطبها لك؟ ثم أتبع سؤاله بضحكة طويلة.
- وكيف أحمد؟
- أحمد توفي قبل شهرين إثر حادث مؤسف.
- لا أريد أن أسألك عن أحد آخر كي لا يكون قد انتحر.
- بقية الشباب يسلمون عليك، دائما يتذرعون بالانشغال، كان شادي سيأتي معي اليوم لكنه خجلان منك، فقد سألته عن عمل في محله لكنه يقول أنه ....
- فهمت لا يريد أن يشغلني، حسنا هذا حقه. هو الذي قال لي أنه كان يبحث عن موظف.
- نعيم، شادي يخاف أن يشغلك عنده، يعتقد أنك لو اشتغلت عنده فسوف تكثر زيارات الموظفين الحكوميين عنده.
ضحكت لهذا التبرير.
- يخاف؟ مم يخاف؟ هل يتاجر بالمخدرات؟
هل نسي أنك وظفته عندك عندما جاء من الوطن قبل عشرين سنة؟ وأسكنته عندك قبل الزواج لستة أشهر لم تتقاض منه مليما واحدا. كان يأكل ويشرب وينام.
قطع حمدان عليك حديثك:
نعيم لا تكترث بمن حولك ومن زارك أو لم يزرك، قلت لك تعال واعمل عندي ولكنك مصر على الرفض.
- حمدان أنت أغلى صديق عندي، وكي أحافظ عليك أفضل ألا أعمل عندك، سأتابع البحث عن عمل.

(٣٢)

وجدتَ عملا في محل تجاري يملكه زميل لبناني في منيابولس، عدت تعمل أجيرا بعدما كنت تدير شركة كبيرة، ها أنت تنظف المحل كل يوم ليلا بعد انتهاء ساعات الدوام الرسمي، تستقل الباص يوميا للعمل رغم البرد الشديد، كي توفر بعض المال لاحتياجاتك اليومية، وترسل لهم ما يساعدهم في حياتهم.
كنتَ إذا شاركت في مناسبة اجتماعية ينظر إليك بعض معارفك الأقدمين نظرة شماتة، لم يعودوا يعيرونك اهتماما، فأنت بالنسبة إليهم رجل فاشل وهم لا يعترفون إلا بالأقوياء، لكن حمدان وبعض أصدقائك لم يتركوك وحدك، فقد ظلوا حولك يقدمون لك كل دعم.

بعد عام عرض عليك حمدان أن تبدأ حياتك من جديد، عرض عليك أن تبدأ بمشروع تجاري صغير، وقدم لك دينا يكفي للبدء به، حاولت أن ترفض لكنه أصر عليك، حتى وافقت أخيرا، وانطلقت تستعيد بعض مجدك الذي انهار.
لم يمض وقت طويل حتى كنت تقف على رجليك، وسط استغراب من كانوا مسرورين بسقوطك.
كانوا يثرثرون فيما بينهم، كيف بدأ مشروعه التجاري؟
لا بد أنه المال الذي كان يخفيه عن عيون الجميع، إنه داهية.
أصبحوا يتكهنون أنك صاحب الملايين ولكنك تتظاهر بالفقر، كي تبعد عيون الحكومة عنك.
وعندما كنت تسمع ذلك كنت تضحك، قائلا:
صيت غنى، ولا صيت فقر.
كنت تنتظر لحظة عودتك للقدس لتلتقي بزوجتك وأولادك، لكنك كنت ممنوعا من السفر، فقرار المحكمة واضح، عدم السفر لمدة ثلاث سنوات، أو دفع كامل المبلغ الذي تطالب به دائرة الضرائب.
كنت تقاوم شوقك كل يوم، تعد الثواني، لم يرو ظمأك اتصالك اليوم بهم عبر الهاتف، والواتس أب، والفيس تايم، لن يشفي غليلك إلا اللقاء بهم.
زاد الحمل على حنان، كانت مثلك تعد الثواني، وأعشار الثواني، وعندما اقترب موعد اللقاء كان قلبها يخفق خوفا.
لم تكن تعلم لماذا كل هذا القلق، لماذا هي متعبة، لماذا يهتز بدنها كلما اقترب موعد اللقاء.

(٣٣)

أقلعت الطائرة من مطار منيابولس باتجاه فلسطين مرورا بمطار أمستردام، وأقلع قلبك معها يخفق فرحا باللقاء المرتقب.
أربعة أعوام مرت بعد آخر زيارة لهم كنت فيها كالضائع وسط الصحراء حيث لا ماء، ولا زاد، أعوام غيرت فيك الكثير، وملأت قلبك بالأشواق، والأشواك.
ها أنت الآن في الجو، هدئ من روعك ومخاوفك وحاول أن تنام، فالمسافة طويلة. القلق يهاجمك من كل الجهات، كيف تنام وأنت تنتظر لحظة اللقاء، حاولتَ أن تقرأ كتابا فلم تستوعب أي كلمة، كانت الكلمات تتراقص على صفحة الكتاب بسرعة يصعب عليك فيها التدقيق في معانيها، وكانت الأفكار تدور في ذهنك بسرعة الضوء، فتتلاشى إلى ذرات ضوئية، كنت تراها في كل صفحة من صفحات الكتاب، وتراهما حولها يحدقون بك، ترى هل ستعجبهم هداياك التي تحملها لهم؟ هل ستعوضهم سنوات غيابك وحرمانهم منك؟ هل أعددت جيدا للقاء.
ما الذي أعددته لهم بعد هذا الغياب؟ هل يكفي العناق، والقبلات، والدموع لحظة اللقاء؟ صابر سيلتحق بالجامعة في العام القادم، فماذا أعددت له؟ هيام صارت صبية، تحتاج لوالدها أكثر من أي وقت، تحتاج لمن يحميها، لمن منحها القوة بوجوده معها.
هكذا أنت دوما تشغل نفسك في ما يفسد لحظة الفرح.
حاول أن تنام، فالانتظار صعب، وفي الطائرة يصبح الانتظار قاتلا لأنك مجبر أن تظل جالسا في مكانك رغم ضيق الكرسي الذي تجلس عليه.

كانت حنان تحضر نفسها منذ الصباح، لم يذهب الأولاد للمدرسة هذا اليوم، كلهم فرحون لأنهم سيلتقون بك، لعل فرحتهم كانت أكبر من فرحتك، فهم الذين يحتاجونك بجانبهم، لقد فقدوا بغيابك سندا، وحضنا يحميهم، ويمنع عنهم مصاعب الحياة، كانوا يتناقشون حول ما تحمله لهم من هدايا.
صابر كان يطمح بهاتف آيفون كزميله علي في المدرسة، لا بد وأن والده أحضر له أيفون، ألم تقل له:
- لك عندي مفاجأة ما دمت متفوقا في الدراسة.
لكنك لم تفصح عن نوع الهدية. هل فعلتها وأحضرت آيفون؟
أما هيام فتطمح أن تشتري لها بيانو.
- بيانو؟ وكيف ستحمله بالطائرة؟
صمتت وقالت:

- لتشتريها من هنا.
كانت الأم منشغلة وحدها، سارحة تتساءل كيف سيكون لقاؤكما؟
هل سترتمي على صدرك منذ لحظة خروجك من المطار لتجهش بالبكاء، أم سيسبقها الأولاد ركضا، وستكون آخر من يعانقك؟ هل تبث لك شوقها، وحنينها في الطريق أم تنتظر وصولها البيت؟
كانت متوترة الأعصاب، تحدث نفسها:
- أي فرح سيغمرني هذا اليوم يا رب، هل هذه نهاية أحزاني، هل طويت الصفحة وبدأت عهدا جديدا؟

نظرت إلى ساعتها كانت الثانية بعد الظهر قالت لهما:
- استعدا لنغادر البيت بعد قليل.
كان والدها قد اتفق معها أن يحضر بسيارته مع أختها وأخيها ويلتقي معها هناك، فلا يكفي سيارة واحدة للجميع.

الساعة الخامسة بعد الظهر هبطت الطائرة بسلام، فتجمع الجميع أمام باب المطار الداخلي ينتظرون خروجه مع المسافرين القادمين.
مرت ساعة لم تسمع منه أي خبر، كانوا يراقبون كل المسافرين فلم يروه.
لأنه عربي فسوف يتأخر يعرفون ذلك تماما، لكن شوقهم للقائة أقلقهم.
ثلاث ساعات دون أي خبر، سألوا مسافرا عربيا خارجا من القاعة:
- هل شاهدت نعيم؟ ووصفوه له.
هز رأسه، وقال:
- أوقفوه الشرطة للاستجواب، شاهدته جالسا على المقعد ينتظر أن يعيدوا له جواز سفره.
غضبتْ حنان وسألت والدها:
- لماذا لم يتصل؟ وعدني أن يتصل فور وصوله المطار، ما الذي حصل معه؟
أربع ساعات ولم يخرج بعد.
وأخيرا، رن جرس هاتفها كان هو المتصل.
- حبيبي انشغلنا عليك، ماذا حصل معك؟

قال لها بصوت حزين:
- سيعيدونني يا حنان، منعوني من الاتصال وأخذوا جواز سفري والهاتف، وقد سمحوا لي أن أتصل الآن لأخبركم أنني عائد.
- عائد؟ لماذا؟ هذه جريمة، هذا ليس من حقهم، يلعن أبوهم، لا لا تقبل.
عندما رآها والدها بهذه العصبية، أخذ الهاتف منها ليسأله.
- الحمد لله على سلامتك يا بني، ما الذي حصل؟
- اتهمونني أنني قادم للبقاء في الوطن، كما فعلت حنان، قالوا لي أنني كتبت في الفيسبوك أنني قادم للإقامة في القدس، وليس للزيارة، قلت لهم أنني سأتابع ذلك مع محام من خلال مكتب الداخلية.
رفضوا، وقالوا لي:
- إما أن تعود برضاك أو سنضطر لحجزك وتقييدك بالطائرة العائدة بعد قليل عن طريق نيويورك.
- ألم تطلب منهم أن يحولوك لمحكمة محلية؟
- رفضوا وقالوا يجب أن تعود وختموا جواز سفري، ممنوع الدخول.
عمي سلم عليهم جميعا، أنا الآن في الطائرة ستقلع الآن. يجب أن أغلق الهاتف.

كانت حنان شبه منهارة، والدموع تملأ وجهها، ما الذي ستفعله بعد كل هذه السنوات من الانتظار؟ صابر، وهيام في لحظة استغراب، ما الذي يحدث؟
استعادت حنان بطاقة الهوية لها، وللأولاد، كونت لها صداقات جديدة، تعودت على البلد من جديد، وتحملت كل مشاكلها، ونقاط تفتيش جيش الاحتلال، صابر سيتخرج في العام المقبل من المدرسة.
ما الذي أفعله يا رب؟ أبعد كل هذا نعود لأمريكا منفيين؟
الكلاب أعطوني الهوية وأعادوا نعيم؟ وهل نعيش بقية العمر بعيدين عن نعيم؟ هل نرفع قضية في المحكمة عليهم؟
ماذا أفعل بعد كل هذا؟
كانت أختها وأخوها يمسكان بها، يحاولان أن يخففا من هول مصابها.
لا أحد كان يعرف الجواب، ما العمل؟ ماذا بعد؟

كان نعيم في الطائرة المتجهة إلى الولايات المتحدة، عبر نيويورك يسأل نفس السؤال:
لماذا كل هذه المشاكل يا رب؟
هل أحضرهم لزيارتي ثم أعيدهم لفلسطين لعلي أنجح في الدخول في سنوات قادمة؟ أم أستسلم رافعا راية الغربة البيضاء إلى الأبد؟
أم ... أنتظر حتى تتحرر، وأعود رافعا شارة النصر؟
ضحك بيأس!!!

تتحرر؟؟ لقد دمروا سوريا، العراق، اليمن، ليبيا ... فمن سيحررها؟
وإلى أن يحصل ذلك، هل أتركهم في فلسطين؟ أم يلحقون بي؟

انتهت

عادل سالم في سطور

- أديب عربي ورئيس تحرير «ديوان العرب»، مقيم حتى أواسط عام ٢٠١٦ في الولايات المتحدة.

- ولد في البلدة القديمة من القدس في فلسطين في الأول من تموز، يوليو (١٩٥٧) في حي (القرمي) الكائن ما بين المسجد الأقصى، وكنيسة القيامة. أمي تقول أنه كان يوم أحد والحاسوب يؤكد أنه كان يوم اثنين فإن صح كلاهما يكون مولدي في الثلاثين من حزيران يونيو ١٩٥٧ وقام والدي بالتبليغ عني في اليوم التالي لدى دائرة تسجيل النفوس.

- أبوه الحاج محمد عبد الرحمان وزوز من مواليد القدس عام ١٩٣٥ وتوفي في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٨، وأمه الحاجة آمنة عبد الجواد وزوز مولودة في الخليل عام ١٩٣٩ ولا تزال تقيم مع أولادها في الولايات المتحدة حتى صدور هذا الديوان.

- اعتقل من قبل السلطات الإسرائيلية مرتين بتهم سياسية، عام (١٩٧٨)، وعام (١٩٨٢)، حيث أمضى (٣٣) شهراً خلف القضبان، تنقل خلالها بين سجون عديدة منها سجن بئر السبع، وسجن نفحة الصحراوي، وسجن الرملة، وسجن بيت ليد وغيرها. وساهم مع كتاب آخرين في تطوير الحركة الثقافية في السجن حيث شارك في تحرير بعض المجلات الاعتقالية المنسوخة باليد بالتعاون.

- فرضت السلطات الإسرائيلية عليه الإقامة الجبرية عام (١٩٨٧) في القدس لمدة ستة أشهر حيث منعته من مغادرة مدينة القدس وفرضت عليه الإقامة في البيت منذ مغيب الشمس حتى شروقها وإثبات وجوده يومياً في مقر الشرطة في القشلة في البلدة القديمة.

- عاش عادل سالم طفولته حتى سن ١٩ عاماً في البلدة القديمة من القدس، متنقلاً بين أزقتها وشوارعها الضيقة. وتنقل بين عدة مدارس فيها هي: المدرسة العمرية الابتدائية، ومدرسة دار الأيتام الإسلامية في المرحلة الإعدادية، وأخيرا الكلية الإبراهيمية في المرحلة الثانوية خارج البلدة القديمة.

- ساهم في مرحلة من مراحل حياته (١٩٧٨ - ١٩٨٧) في العمل النقابي الفلسطيني حيث بادر بتأسيس وإحياء بعض النقابات العمالية في القدس وكان عضواً في

مجلس الاتحاد العام للنقابات العمالية وشغل لفترة عضوية اللجنة التنفيذية للاتحاد حيث كان مشرف الاتحاد الثقافي.

- شارك عام (١٩٨٨) في ورشة عمل في الأمم المتحدة عن واقع العمال الفلسطينيين تحت الاحتلال.

- شارك في محاضرة عن أوضاع العمال الفلسطينيين في الضفة والقطاع بدعوة من اتحاد العمال الكندي عام (١٩٨٨).

- شارك في العديد من الندوات الشعرية وتعرض لملاحقة السلطات الإسرائيلية عام (١٩٧٨) بعد قصيدة ألقاها في احتفال جماهيري بمناسبة الأول من أيار في قاعة سينما الحمراء في القدس كان عنوانها: «لن تسقط راية ثورتنا».

- من خلال ديوان العرب أسس لمسابقة أدبية عربية سنوية كانت الأولى في الشعر عام (٢٠٠٣) والثانية في القصة القصيرة عام (٢٠٠٤) والثالثة في أدب الأطفال عام، (٢٠٠٥)، والرابعة في الشعر الحر عام عام (٢٠٠٧) والخامسة في مجال الرواية العربية للشباب عام (٢٠١٠)، والسادسة في مجال المجموعة القصصية. والسابعة في مجال القصة القصيرة جدا عام ٢٠١٥.

- ساهم في تأسيس تجمع أدبي فكري للكتاب الفلسطينيين لكنه استقال منه لاحقًا، لغياب النهج الديمقراطي في العمل.

- كتب في عدة صحف أميركية ناطقة بالعربية مثل عرب تايمز، وبيروت تايمز من عام (١٩٩١) حتى العام (٢٠٠٢) في شتى شؤون المعرفة والثقافة والأدب والشعر.

- أسس موقع ديوان العرب عام (١٩٩٨) الذي يحظى بسمعة طيبة في أوساط المهتمين بالشأن الثقافي والأدبي، ويشغل الآن رئيس التحرير.

- نشر العديد من قصائده ودراساته في مجلات وصحف يومية وشهرية مطبوعة مثل «الفجر الأدبي»، و«الكاتب»، و«الاتحاد»، و«البيادر الأدبي»، و«البيادر السياسي»، و«النهار»، و«الشعب»، «وفلسطين الثورة»، و«الحرية»، و«العودة»، وغيرها.

- سجن مرتين في الولايات المتحدة الأمريكية مدة ٣٤ شهرا، ومنع من السفر سبع سنوات.

الإصدارات الأدبية

الروايات:

- صدر له عن (دار الجندي للنشر) في القدس رواية «الحنين إلى المستقبل» عام ٢٠١٦. صمم الغلاف الفنانة رشا السرميطي.

- صدر له رواية «قبلة الوداع الأخير» عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت في نهاية ٢٠١٢.

- صدر له عن «دار الجندي» في القدس رواية «عاشق على أسوار القدس» عام ٢٠١٢.

- صدر له عن دار شمس في القاهرة عام ٢٠١٠ روايته الأولى «عناق الأصابع»، رواية الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال، تقع الرواية في ٣٦٨ صفحة من الحجم المتوسط.

- صدر له عن «دار الجندي» في القدس الطبعة الثانية من رواية «عناق الأصابع» عام ٢٠١٢.

مجموعات قصصية:

- صدر له عن «دار الجندي للنشر» في القدس مجموعة قصصية بعنوان «الرصاصة الأخيرة»، تضم المجموعة التي جاءت ب ٢٨٨ صفحة من الحجم المتوسط ٣٥ قصة قصيرة منوعة داخل وخارج فلسطين المحتلة. كتبت خلال العامين الأخيرين، وقد صمم غلاف المجموعة الفنانة والقاصة الفلسطينية رشا السرميطي من القدس المحتلة.

وقد أهدى الكاتب مجموعته لحارات وأزقة القدس القديمة، أولى القبلتين، ودرة المشرقين.

- صدر له أيضا في العام ٢٠١٢ مجموعة قصصية جديدة عن مؤسسة شمس للنشر، بعنوان «يحكون في بلادنا».

- صدر له في العام ٢٠١٢ أيضا مجموعة قصصية عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت بعنوان «يوم ماطر في منيابولس»، وتضم المجموعة قصصا قصيرة عن واقع الجالية العربية في الولايات المتحدة.

- صدر له عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت عام (٢٠٠٧) مجموعة قصصية بعنوان «ليش ليش ياجارة؟»، المجموعة تقع في ١٤٤ صفحة من الحجم المتوسط.

- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «لعيون الكرت الأخضر»، صيف (٢٠٠٦) عن المؤسسة العربية للنشر في بيروت، والمجموعة في ٢٨١ صفحة من الحجم المتوسط وتدور حول الجالية العربية المغتربة في الولايات المتحدة الأمريكية.

ديوان شعر:

- أصدر ديوانين شعريين هما «عاشق الأرض» عام (١٩٨١)، و«نداء من وراء القضبان» عام (١٩٨٥).

- صدر عن «المؤسسة العربية للنشر» في الأردن عام ٢٠١٥ديوان شعر جديد بعنوان «الحب والمطر».

إصدارات أخرى:

- صدر له عن دار «الكلمة» للنشر في مصر عام (٢٠٠٦) دراسة توثيقية بعنوان «أسرانا خلف القضبان»، الكتاب يقع في (٢٢٠) صفحة من الحجم المتوسط وهو دراسة توثيقية عن الأسرى العرب في سجون الاحتلال الصهيوني البغيض.

- أصدر دراسة بعنوان «الطبقة العاملة الفلسطينية والحركة النقابية في الضفة والقطاع من عام (١٩٦٧) إلى (١٩٨٧)» الدراسة عبارة عن كتاب من الحجم الكبير

وعدد صفحاته (١٥٠) صفحة صادرة عن مركز الدراسات العمالية في رام الله عام (١٩٩٠).

- أصدر الدراسة السابقة نفسها عن المصدر نفسه باللغة الإنجليزية عام (١٩٩١).